أصوات مناهضة للاستدمار

جان بول سارتر

مواقف مناهضة للاستعمار

توطئة فاطمة بلجرد

ترجمة محمد معراجي

ومراجعة أحمد معراجي



منشورات ANEP

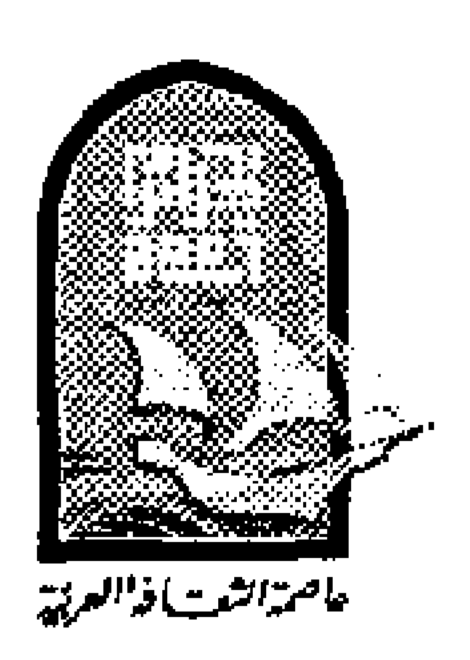
جان بول سارتر

مواقف مناهضة للاستعمار

توطئة فاطمة بلجرد

ترجمة محمد معراجي

ومراجعة أحمد معراجي



منشورات ANEP

توطئة

إن جان بول سارتر يمثل بدون منازع أكبر مفكر فرنسي مضاد للاستعمار. وليس معنى هذا أننا نستخف بمساهمة زميله في مجلة "الأزمنة المعاصرة" فرانسيس جونسون الذي كان أساسا إخباريا و ميدانيا، و مساهمة أندري ماندوز الذي اعتنى برفع صوت الثورة الجزائرية بقوة في المطبوعات الفرنسية، كما لا ننسى تلك المجموعة من الرجال و النساء التي ما فتئت تدافع عن حرية الجزائر باسم قيم الإنسانية الوطنية الفرنسية المناهضة للاستعمار التي تتأصل في الصورة المركزية و المخفاة لبول فينيي دوكتون، ذلك المؤلف العظيم منذ بداية القرن العشرين لكتابي "مجد السيف" و "عرق البرنس" و قد تسلط على هذين الكتابين إبعاد غير مقبول في بلد حرية التعبير و إجلال "الذاكرة".

و قد مثل تدخل جان بول سارتر في ميدان مناهضة الاستعمار الجذرية ابتداء من شهر مارس 1956 زمنا استثنائيا في تأريخ الفكر و المفكرين الفرنسيين، و جان بول سارتر ليس بالفعل مثقفا بسيطا معترفا به أو في طريق الاعتراف قد التزم بطريقة عفوية نوعا ما بالدخول في مناورة متعددة الأشكال لمساندة حرب التحرير الجزائرية فحسب، و لكنه في الحقيقة "علم مقدس" في الفلسفة و الأدب الفرنسيين، و قد جعل من مبدأ مواجهة الاستعمار دَيْدَنَه في المعركة السياسية و الإعلامية و الفلسفية بطريقة عادية مستمرة و عنيدة وجذرية مدة ست سنوات.

و الواقع أن الاهتمام بانقلاب العالم المتمثل في عودة الشعوب المستعمرة وخصوصا شعوب إفريقيا إلى مسرح التأريخ النشيط في ميدان الفلسفة يعود إلى 1948 بواسطة التقديم الطويل و الهام لمنتقيات الشعر الأسود و الملغاشي الجديد باللغة الفرنسية الذي قام ليوبولد سدار سانغور و الذي تفتتح به هذه النشرة العاشرة لأول مجموعة من سلسلة مجموعة "الأصوات المناهضة للاستعمار"، هذه المجموعة التي تهدف إلى ترشيد شبيه الحوار الكريه الرائحة الذي ساير التصويت على "القانون الآثم" في تاريخ 2005/02/23. هذا القانون احتقار لكل الآلام التي قاساها الشعب الجزائري طيلة 132 سنة من الاستعمار الفرنسي الهادم للحضارة، و هذا القانون عبارة كذلك عن إهانة لذكاء العقل والقلب لدى المناضلين و المفكرين الفرنسيين الذين نددوا مثل جان بول سارتر بالاستعمار الفرنسي بحدة تفوق حدة مثقفي المستوطنات أنفسهم، و الذين نددوا "بالغنغرينة" (الآكلة) التي كانت تمثلها بالنسبة للشعوب المستعمَرة و كذلك و في نفس الوقت بالنسبة للشعوب المستعمِرة.

من واجب الجزائريات و الجزائريين اليوم، و كذلك الفرنسيات و الفرنسيين أن يعرفوا أنه مر زمان، نصف قرن بالضبط كانت فيه وظيفة الفيلسوف في فرنسا تعني المكافحة بالمفهوم و النقد و العريضة للاضطهاد الذي لم تكتف الدولة وحدها بتسليطه بل كانت كل منظومتها الاجتماعية كذلك تنتهجه ضد شعوب أخرى ؟و هذه حقيقة حتى في أعلى مستوى التزام "أبي" الوجودية جان بول سارتر حيث كان هناك خطر على حريته و حتى على حياته التي كان يهددها إرهابيو منظمة الجيش السري (أو. آ. آس)، و كان الأمر كذلك و لكن بطريقة أكثر برودة و ناجعة تربويا بالنسبة لريمون آرون، "العلم المقدس" الثاني للفكر الفرنسي في الربع الثالث من القرن العشرين.

و ينبغي لقارئات اليوم و قرائه من الجزائريات و الجزائريين و الفرنسيات والفرنسيين أن يعلموا أنه أثناء حربنا التحريرية إنفرد واحد فقط من المثقفين الكبار الثلاثة الذين كانوا يهيكلون نخبة المثقفين وقتها و هو آلبار كامي و فضل "أمة على العدالة"، معلنا هكذا عن التراجع العقيم الضخم و الخطير للفكر الفرنسي متوجها نحو نرجسية تجمعية و صورية قاتلة تقضي على أي تعميم إنساني عملي و تفاضلي، و نلاحظ اليوم أن هذه النرجسية و هذه الصورية تعتمان بعد نصف قرن جل الحقل الثقافي الفرنسي. ويستحسن في عيني أنه، يهدف القضاء على آثار الجراح القديمة التي لازلت تؤثر خفية في الحاضر، وبناء مستقبل تضامني، يليق بالجزائريات و الجزائريين و الفرنسيات والفرنسيين أن يقرؤوا هذه النصوص المنعشة لآخر فيلسوف فرنسي ذي المفهوم الحاد و الجانب العملي الملزم، و هو جان بول سارتر، المولع بالحرية لدى الأشخاص و الشعوب قبل أوان وقت "الفلاسفة الجدد"، أصحاب الكتابة الجامدة و الصارة مثل صوت ورقة بنك جديدة و في نفس الوقت قديمة قدم "عجل الذهب".

ربما يتفاجأ قارئ اليوم في نصوص سارتر بتواجد نفس تحرير قوي و معمم اقتبسه من الظواهرية و من القدسية الهيجيلية الماركسية . أقترح على القارئ أن يبذل جهدا للتخلص من هذا الطمس الذي تحول اليوم إلى نزعة غربوية مثلما نشاهده عند هونتينغرو أو فوكوياما للوصول إلى الكلمة الحية الدائمة ل جان بول سارتر حتى ولو كان في الأمر تجزئة وانحياز.

ولهذه الغاية أوصي القارئ بقراءة مقدمات جان بول سارتر بأعين بول ڤيني دوكتون و الأمير خالد، و جاسبرس، و مارلو بونتي، و فرانتز فانون، و مالك بن نبي، و كذلك بعيني جان بول سارتر نفسه الذي أعلن جهارا في آخر حياته في مارس 1980 ضمن مجلة "نوفال أوبسارفاتور" وضع حد للإلحاد الخلاق ذلك

العيب الذي لن يمحي من وجودية سارتر. حيث قال: "لا أشعر بنفسي كذرة ظهرت في العالم و لكن ككائن منتظر و محدث و سابق التصوير، مثل كائن لا يبدو قادرا على الإتيان إلا من خالق، و هذه الفكرة ليد منقذة قد تكون خلقتني يؤدي بي إلى الله".

فاطمة بلجرد

أولا

أورفـــي الأســـود

تقديم منتخبات الشعر الأسود و الملغاشي الجديد

باللغة الفرنسية.

لـ : ليوبولد سدار سانغور

ماذا كنتم تأملون عندما كنتم تنزعون الكمامات التي وضعتموها على الأفواه السوداء؟

هل كنتم تنتظرون أن تغنّيَ بِمدحكم؟ هذه الرؤوس التي طأطأها آباؤنا حتى الأرض، هل كنتم تظنون أن تقرؤوا حينما ترتفع مشاعر عبادتكم في عيونها ؟ أنظروا أمامكم رجالا سودا واقفين يتبصرونكم، وأرجو أن تشعروا مثلي باقشعرار المنظور إليه. ذلك أن الرجل الأبيض تلذذ طيلة ثلاثة آلاف سنة حظوة من يرى دون أن يراه أحد، فكان هذا الرجل هو النظر الصافي، و النور في عينيه منبثق من الظل الميلادي، وبياض جلده كان نظرة أخرى للنور المركز. فالرجل الأبيض، الأبيض لأنه رجل و الأبيض مثل النهار، و الأبيض مثل الحقيقة و الأبيض مثل الفضيلة، كان كالمصباح ينير الخليقة و يبرز جوهر المخلوقات الخفي والأبيض. أما اليوم فهؤلاء الرجال السود ينظرون إلينا و نظرنا يعود إلى عيوننا. بل هناك مصابيح سوداء تنير بدورها العالم، و لم تعد رؤوسنا البيضاء سوى فوانيس تهزها الرياح. فهذا شاعر أسود يهمس غير مكترث بنا في أذن محبوبته :

"أيتها المرأة العارية، المرأة السوداء

المرتدية لونك الذي هو الحياة

أيتها المرأة العارية، المرأة القاتمة،

أيها الثمر الناضج ذا اللب السميك،

و النشوة الغامضة للخمر الأسود "

و بياضنا يبدو طلاء شاحبا غريبا يمنع جلدنا التنفس. بل قميصا أبيض متآكلا عند المرافق و الركب لو استطعنا نزعه لوجدنا اللحم البشري الحقيقي بلون الخمر الأسود. كنا نظن أنفسنا ضروريين للعالم شموس حصاده و أقمار مده و جزره. و الواقع أننا لم نعد تمثل سوى حيوانات من طغمته ، بل صرنا دون الحيوانات :

"هؤلاء سادة المدينة

هؤلاء السادة المرموقون

الذين صاروا لا يعرفون كيف يرقصون مساء على ضوء القمر

الذين لا يعرفون المشي على جلود أقدامهم

و الذين صاروا لا يعرفون قص حكايات السمر... "

و قديما رغم زعم كوننا أوروبيين بالحق الإلهي، كنا بدأنا وقتها نحس بتفكك كرامتنا تحت أنظار الأمريكيين و السوفيات حيث بدأت أوروبا تبدو نتيجة حادثة جيولوجية كشبه جزيرة تدفعها آسيا نحو المحيط الأطلسي. كنا نرجو على الأقل العثور على شيء من عظمتنا في العيون الإفريقية الخادمة، و لكن العيون الخادمة أصبحت خبرا و تحولت إلى أنظار وحشية و حرة تحاسب أرضنا.

اسمعوا ذا الأسود الشارد :

" إلى نهاية أزلية شوارعهم بدون نهاية بالشرطة"

و هاك آخر يصارخ إخوته :

"أسفا، أسفا، أوربا العنكبوتية تحرك أصابعها و أنامل سفينتها".

و هاك (كذلك) :

"الصمت الماكر لهذه الليلة الأوروبية"

أو :

"لا يوجد شيء لا يهتك الدهر عاره"

و يكتب أسود :

"مونبارناس وباريس، أوريا و همومها اللامتناهية تلاحقنا أحيانا كالذكريات وأخرى كالآلام..."

و فجأة تبدو فرنسا لأعيننا ذاتها غريبة. لم تعد إلا ذكرى و ألما وضبابة بيضاء كامنة في أعماق أنفس متشمسة، في بلد خلفي لا يطلب فيه العيش. لقد انحرفت فرنسا نحو الشمال و أرست قرب كامتشاتكا : الشمس هي الأساسية، شمس المدار الإستوائي و البحر "المليء بالجزر" و ورود إيمانغ و زنابق إباريق و براكين المارتنيك. والكائن أسود والكائن الأسمى من نار. أما نحن فعرضيون و أباعد، و علينا أن نبرر أخلاقنا و تقنياتنا وشحوب نقص نضجنا، و نباتنا الزنجاري. فنحن منقرضون حتى العظام بسبب هذه النظرات الهادئة و الآكلة :

"استمعوا إلى العالم الأبيض

الذي أنهكه كثيرا جهده الكبير

اسمعوا مفاصله العاصية تتفرقع تحت النجوم القاسية

و تصلبه الحديدي الأزرق يخترق اللحوم الباطنية،

أنصبت إلى انتصاراته الرفيعة

تعلق انهزاماته

أنصبت لأعذاره العظيمة

عثرته الواهية

فرفقا بالمنتصرين علينا العلماء و الساذجين"

ها نحن هلكنا، و انتصاراتنا، و بطوننا الموجهة نحو السماء تظهر أمعاءنا و أحشاءها و تعلن هزيمتنا السرية. و إذ أردنا التخلص من هذا

الهلاك الخانق الذي يسجننا فلا يمكننا الآن الاعتماد على امتيازات جنسنا و لا لوننا و لا تقنياتنا. و لا يمكننا اللحاق بكافة الناس إذ العيون السوداء تعزلنا عنهم إلا إذ نزعنا أقمصتنا البيضاء محاولين فقط أن نَكون رجالا.

و إذ كانت هذه القصائد رغم ذلك تصمنا بوصمة عار فذلك لم يكن قصدنا إذ لم تنظم من أجلنا، فكل الذين يفتحون هذا الكتاب من المعمرين و مسانديهم سيظنون أنهم يقرؤون بشيء من التعالي رسائل موجهة إليهم. فهؤلاء السود يتوجهون إلى السود ليكلموهم عن السود. وليس شعرهم هجاء و لا شتما و إنما هو استعادة للوعي. فستقولون "إذا، فبما تعنينا، إن لم نر فيها وثيقة فحسب؟ و لن نستطيع ولوجها". وأود أن أبين كيف يمكن ولوج هذا العالم الأسود، و أن هذا الشعر الذي يبدو عنصريا ما هو في الحقيقة إلا أغنية من الجميع و للجميع. و أنا أتوجه هنا بكلمة واحدة إلى البيض وأود أن أشرح لهم ما يعرفه السود قبلهم : لماذا يتحتم على الأسود في ظروفه الحالية أن يعي نفسه بواسطة التجربة الشعرية بالضرورة، و بالعكس لماذا يمثل الشعر الأسود باللغة الفرنسية في زمننا هذا الشعر الثوري الوحيد.

إذا كانت الطبقة الشغيلة البيضاء لا تستعمل لغة الشعر للكلام عن آلامها و غضبها أو عن الفَخْر الذي تكنه لنفسها، لم يكن هذا صدفة، و لا أظن أن العمال أقل موهبة من أبناء عائلاتنا : فالموهبة أي تلك النعمة الفعالة تتجرد من كل محتواها عندما تدعي تقرير انتشارها في طبقة دون الأخرى. لا يعني هذا أن صعوبة العمل تضعف قوتهم في الغناء، فلقد كان العبيد يكدون أكثر فأكثر و نحن نعرف أغاني عبيد، فلا بد من الاعتراف إذا أن الظروف الحالية لصراع الطبقات هي التي تبعد العامل عن التعبير شعرا عندما تضغط عليه التقنية يريد أن يكون تقنيا لأنه يعلم أن التقنية تكون وسيلة نجاحه. فإذا كان عليه أن يراقب يوما ما تسيير المقاولات فهو يعلم أنه لن يصل إلى هدفه إلا بمعرفة مهنية و اقتصادية و علمية. فهو يعرف عما سماه الشعراء الطبيعة معرفة عميقة و عملية حققها بعمله

اليدوي أو مما شاهده بعينه، فالطبيعة تعني لديه المادة و تلك المقاومة السلبية و تلك الشدة الماكرة الجامدة التي يحرثها بآلاته. و المادة لا تغني، و في نفس الوقت فإن المرحلة الراهنة من كفاحه تتطلب منه عملا مستمرا و إيجابيا من حساب سياسي و توقعات صحيحة و انضباط وتنظيم للجماهير. و بالتالي فالحكم هنا يكون عبارة عن خيانة .

إن العقلانية و المادية و الوضعية هذه المواضيع الكبيرة لِصِراعِه اليومي غير مساعدة بتاتا على الإبداع العفوي للأساطير الشعرية. و إن آخر هذه الأساطير "المساء الكبير" المشهور قد تقهقر أمام ضرورات الصراع.

يجب الإسراع نحو ما هو أكثر استعجالا و احتلال هذا الموقع وذاك، ورفع هذا المرتب، و تقرير هذا الإضراب التضامني، و تنظيم ذلك التنديد بالحرب الهندو- الصينية، و الفعالية وحدها هي التي تعتبر. و مما لا شك فيه أنه يجب على الطبقة المضطهدة أن تعي نفسها. لكن استرجاع الوعي هذا هو بالضبط عكس العودة ثانية داخل النفس، إنما الأمر يكمن في التعرف من داخل العمل و به على الوضعية الموضوعية للطبقة الشغيلة هذه الوضعية التي يمكن تحديدها بواسطة ظروف الإنتاج أو توزيع الخيرات. فإن العمال الذين وحدهم و بسطهم الإضطهاد المسلط على الجماعة والفرد، و الصراع المشترك لا يعرفون بتاتا التناقضات الداخلية التي تلد الأعمال الفنية و تسيء إلى العمل. لا يعرفون أنفسهم إلا بموقعهم بالنسبة للقوى الكبيرة التي تحيط بهم أو التعرف على المكانة الحقيقية التي يحتلونها داخل طبقتهم و الوظيفة التي يقومون بها داخل الحزب. و اللغة التي يستعملونها هي نفسها خالية من تلك التساهلات الخفيفة و تلك الأخطاء الخفيفة الدائمة و ذلك التلاعب في الاتصالات التي تبدع الفعل الشعري. ففي مهنهم لا يستعملون إلا المصطلحات التقنية و المحددة، أما لغة الأحزاب الثورية فقد بين باران أنها نفعية، فهي تستعمل لتمرير أوامر و شعارات ومعلومات، و إذا نقصت

صرامة هذه اللغة فمعنى ذلك أن الحزب يضمحل. كل هذا مما يؤدي إلى القضاء المبرم على الذات، و الحقيقة أن الشعر ينطوي دائما على شيء من الذاتية. لقد غاب عن الطبقة الشغيلة شعر اجتماعي متجذر في الذاتية، يكون اجتماعيا بقدر ما هو ذاتي، و ينتصب على فشل اللغة و يكون مع ذلك مثيرا بقدر ما يفهم أدق تعبير تأتي به الأوامر أو "يا عمال العالم اتحدوا" و هو الشعار الذي نقرأه على أبواب روسيا السفياتية. و لانعدام هذه الشروط بقي شعر الثورة المستقبلية بين أيدي بورجوازيين صغار ذوي نيات حسنة كانوا يستلهمون شعرهم من التناقضات النفسانية، معاكسين بذلك مثلهم الأعلى و طبقتهم، و ذلك كله بواسطة لغة برجوازية بالية مترددة ؛

و لقد راح الأسود مثل العامل الأبيض ضحية البنية الرأسمالية لمجتمعنا. و هذه الوضعية تزيح الستار عن تضامنه الضيق رغم اختلاف ألوان البشرة مع بعض الطبقات الأوربية المضطهدة مثله، و تحفزه على التفكير في مشروع مجتمع لا امتياز فيه حيث تعتبر صبغة البشرة حادثة بسيطة. و لكنه، إن كان الاضطهاد واحدا فإنه يخضع للتأريخ الجغرافي.

فالأسود هو الضحية بصفته أسود و من الأهالي المستعمرين أو إفريقيا منفيا. و لأن الاضطهاد يسلط على جنسه و من أجل جنسه فعليه أولا أن يعي جنسه. أما الذين حاولوا طيلة قرون أن يحولوه لأنه كان أسود إلى وضعية حيوان، فيجب عليه اليوم أن يرغمهم على الاعتراف به كإنسان. وفي نهاية المطاف لا يوجد هنا مخرج و لا تحيل و لا " عبور حد" يمكن التفكير فيه ؛ فاليهودي مثلا، و هو أبيض وسط البيض، يمكنه أن ينكر أنه يهودي معلنا أنه رجل ضمن الرجال. أما الأسود فلا يمكنه إنكار أنه أسود و لا أن يطالب لنفسه بهذه البشرية المجردة و لنفسه التي لا لون لها ؛ إنه أسود. إنه هكذا مؤاخذ بالأصالة، و رغم شتمه و استعباده فإنه يستقيم ويلتقط كلمة "أسود" التي رمي بها كالحجارة، و يعلن سواده مفتخرا أمام الأبيض. و لابد أن تكون الوحدة النهائية التي تقارب كل المضطهدين

في معركة واحدة بعد أن يحقق في المستوطنات وقت الفصل أو وقت السلبية و تبقى هذه العنصرية المضادة للعنصرية السبيل الوحيد الموصل إلى إلغاء التفرقة العنصرية. و لا يمكن الوصول إلى هذه النتيجة بطريقة أخرى و هل يستطيع السود الاعتماد على الطبقة الشغيلة البيضاء و هي بعيدة عنهم و مشغولة بصراعاتها قبل أن يتحد السود و ينظموا أنفسهم في بلادهم؟ ألا يجب مع ذلك القيام بتحليل لتحديد تطابق المصالح العميقة على ضوء تفارق الظروف الواضح، لأن الأبيض يستفيد نوعا ما رغم أنفه من الاستعمار، و مهما كان مستوى معيشته منحطا فهو بدون هذه الفائدة سينحدر أكثر. و مهما كانت الظروف فهو أقل استغلالا من العامل اليومي في داكار أو سان لوي زد على ذلك أن التجهيز التقني والتصنيع في البلدان الأوروبية يُفسحان المجال أمام إيجاد إجراءات اجتماعية تكون قابلة للتطبيق حالا. أما إذا نظرنا إلى الاشتراكية في السنغال أو الكونغو فإنها تتراءى مثل حلم جميل. و إذا أردنا من المزارعين السود أن يخلصوا إلى أن الاشتراكية هي النتيجة الحتمية لمطالباتهم المحلية المباشرة، فلا بد أولا أن يتعلموا صياغة هذه المطالب جماعة، و بالتالي أن ينظروا إلى أنفسهم بصفتهم رجالا سودا.

ولكن هذا الوعي تختلف طبيعته عن الوعي الذي تحاول الماركسية إيقاظه عند العامل الأبيض. فالوعي بالطبقية لدى العامل الأوربي مؤسس على طبيعة الفائدة و فائض القيمة و على الظروف الحالية لملكية وسائل العمل، و باختصار على الصفات الموضوعية لوضعية المشكل ولكن نظرا إلى أن الاحتقار النفعي الذي يبديه البيض إزاء السود دون أن يجد له مثيلا في موقف البورجوازية إزاء الطبقة الشغيلة يهدف إلى التأثير في أعماق قلوب السود، فعلى السود أن يعارضوه بنظرة أصح إلى ذاتية السود. و عليه فالوعي بالجنس محوره الأساسي الروح السوداء أو، بعبارة أخرى، ما دامت الكلمة تتكرر كثيرا في هذه المختارات، يتمحور على قاسم مشترك بين أفكار السود و سلوكاتهم و الذي يسمى بالسودوية

و الحقيقة أنه لا يوجد إلا طريقتان لوضع المفاهيم العنصرية : تحويل بعض الصفات الذاتية إلى الموضوعية، أو محاولة استبطان سلوكات يمكن كشفها موضوعيا. و هكذا يتمكن الأسود المطالب ضمن حركة ثورية من وضع نفسه مباشرة في دائرة النظر العقلي، فإما أن ينزع إلى العثور في نفسه على بعض السمات المشاهدة موضوعيا في الحضارات الإفريقية وإما أن يرجو العثور على الجوهر الأسود في جب قلبه. و هكذا تطفو الذاتية كعبارة علاقة الإنسان بذاته و هي عنصر كل شعر أجبر العامل على بتره ... و إن الأسود الذي يدعو إخوته في الجنس إلى الوعي بأنفسهم سيحاول أن يقدم لهم الصورة المثالية بعد الرجوع إلى نفسه لاستخلاصها منها فهو ينصب نفسه منارة و مرآة في نفس الوقت . و المبشر بالروح السوداء سيكون الثوري الأول و الرسول الذي سينتزع السودوية من نفسه ليقدمها للعالم فهو نصف رسول و نصف مناصر و باختصار سيكون شاعرا بالمعنى الدقيق لكلمة "فاتيس". و لا علاقة للشعر الأسود بفيض القلب بل هو شعر وظيفي استجابة لحاجة تضبط تحديده. إذا تصفحتم مختارات من الشعر الأبيض اليوم ستجدون فيها مائة موضوع مختلف انطلاقا من مزاج الشاعر و همه و من وضعيته و وطنه. أما في المختارات التي أقدمها لكم فلا يوجد سوى موضوع واحد يحاول كل شاعر أن يعالجه بتفاوت في النجاح. لا توجد إلا فكرة واحدة من هاييتي إلى كايان و هي إبراز الروح السوداء و الشعر الأسود إنجيلي إذ ينبئ ببشرى جيدة : عودة السودوية.

و هذه السودوية التي يريدون صيدها داخل أعمق أعماقهم لا تنزل بنفسها لنظر الروح حيث ليس من الهين العثور على شيء في الروح. فرسول الروح السوداء قد تكوّن بالمدارس البيضاء حسب قانون القوة الذي يمنع المضطهد من اكتساب أي سلاح ما لم يكن سرقه بنفسه من مضطهده. و لم تنتقل سودويته من الوجود المباشر إلى الوضع المفكر إلا بعد اصطدامها بالثقافة البيضاء، و لكن المضطهد قارب نهاية حياته

في نفس الوقت، فعندما اختار النظر إلى كيانه انقسم إلى اثنين، فهو لا ينطبق على نفسه، و هو عكس ذلك عندما وجد نفسه منفيا عن نفسه أحس بوجوب الظهور. ويبدأ إذا بالنفي و النفي مزدوج : فنفي جسمه يقدم صورة رائعة لنفي قلبه. فهو في غالب الزمان يعيش في أوروبا يعاني البرد وسط حشود رمادية، إنه يحلم ببورت أوبرانس بهاييتي. و لكن هذا غير كاف، ففي بورت أوبرانس كان منفيا مسبقا. فتجار العبيد السود انتزعوا آباءه من إفريقيا و بعثروهم. و كل أشعار هذا الكتاب ما عدا ما كتب منها في إفريقيا يقدم لنا نفس الجغرافيا الباطنية، في نصف الكرة الأرضية الشمالي و في قاعدته حسب أولى الدوائر المتحدة المراكز تمتد أرض النفي، أوروبا عديمة اللون. و تأتي الدائرة الباهرة دائرة الجزر والطفولة التي ترقص حول إفريقيا. فإفريقيا هي آخر دائرة و صرة العالم و مركز كل الشعر الأسود. إنها إفريقيا الباهرة، المحروقة، الزيتية مثل جلد الحية، إفريقيا النار و الغيث، إفريقيا الملتهبة و الكثيفة، إفريقيا الشبح المتمايل مثل النار بين الوجود و العدم، أصح من "الشوارع اللامتناهية بشرطتها" إلا أنها غائبة تفتت أوروبا بأشعتها السوداء التي لا يمكن مشاهدتها و لا اللحاق بها، إنها إفريقيا القارة الخيالية.

و حظ الشعر الأسود الذي لا مثيل له يكمن في أن هموم الساكن الأهلي المستعمر تجد لنفسها رموزا واضحة و عظيمة يكتفي بتعميقها و التأمل فيها باستمرار و هي : النفي والاستعباد و الثنائي إفريقيا و أوروبا و الانقسام الكبير للعالم إلى أبيض وأسود. و هذا النفي الجسدي منذ السلف هو رمز للنفي الآخر، فالروح السوداء تمثل إفريقيا التي نفي منها الأسود وسط العمارات الباردة و الثقافة التقنية البيضاء. و السودوية الحاضرة كلها المتخفية تسكن هذه الروح و تلمسه لمسا خفيفا و هو يتمسح على جناحها الحريري و هو مختلج و مبسوط بكامله عن ذاكرته العميقة و مطلبه الأقوى و أيضا كتعبير عن طفولته الدفينة و المخدوعة و طفولة جنسه حينما تناديها الأرض، و هو كذلك عبارة عن تهافت الغرائز و بساطة الطبيعة غير

القابلة للتجزئة، و إرث الجدود النقي و مثل القيم الأخلاقية التي يرجى منها توحيد واجهته. كل هذا يتبدد تبدد الدخان، حيث تحول بينه و بين سودويته جدران الثقافة البيضاء و علمها و كلماتها و ممارستها :

"أعيدوا إلي لعبي السوداء لألعب بها

الألعاب البسيطة لغريزتي

و أبقى في ظل قوانينها

واسترجع شجاعتي و جرأتي

و أشعر بذاتي

ذاتي الجديدة بالنسبة لما كانت

بالأمس

بدون تعقيد

بالأمس

حين دقت ساعة الاقتلاع

لقد سطوا على الفضاء الذي كان فضائي "

و لا بد أن تهدم جدران الثقافة- السجن، و لا بد يوما من العودة إلى إفريقيا : و هكذا نجد في داخل السودوية موضوع العودة إلى مسقط الرأس و الهبوط إلى جحيم الروح السوداء الساطع متداخلين بدون انفصال فالأمر عبارة عن بحث و جرد منظم و تقشف يصحب الجميع جهد متواصل للتعميق. و أسمي هذا الشعر شعرا "أورفيًا" لأن هذا الهبوط غير المتواني من الأسود إلى أعماق نفسه يذكرني بأورفي الذاهب إلى بلوتون يطالبه بأوروديس. و هكذا، بواسطة حسن حظ شعري استثنائي، يتمكن الشاعر الأسود و هو يتعاطى شطحاته و تمرغاته على الأرض كالممسوس الواقع فريسة لنفسه، و يتغنى غضبه و تأسفاته و ممقوتاته عارضا جراحه و حياته المتلاشية بين "الحضارة" و العمق الأسود القديم، وهو بهذا غنائي جدا، و يتمكن و يصل الشاعر الأسود بكل تأكيد إلى

الشعر الجماعي الكبير : إنه عندما يتكلم عن نفسه فقط فهو لسان حال كل السود. فعندما يظهر مختنقا بفعل ثعابين ثقافتنا يفرض نفسه ثوريا، لأنه يشرع حينئذ في تهديم منظم للمكتسب الأوري، و هذا التهديم الفكري يرمز إلى التسلح الكبير القادم الذي سيكسر به السود سلاسلهم. و يكفينا مثال واحد لتوضيح هذه الملاحظة الأخيرة.

أثناء القرن التاسع عشر، كانت الأقليات العرقية في نفس الوقت الذي تحارب فيه من أجل استقلالها تحاول بولع كبير إحياء لغاتها الوطنية. فلا بد لمن أراد أن يعتبر نفسه إيرلانديا أو مجريا أن يكون منتسبا إلى مجموعة تتمتع بحرية اقتصادية و سياسية واسعة، و لكن لا يكون إيرلانديا مع ذلك إلا من كان تفكيره إيرلانديا و ذلك يعني قبل كل شيء أن يفكر باللغة الإيرلاندية. فالسمات الخاصة بمجتمع ما تتوافق تماما مع عبارات في لغتها غير قابلة للترجمة و الذي بمكن أن يتسبب في عرقلة كبيرة لجهود السود الرامية إلى التخلص من وصايتنا يكمن في أن المبشرين بالسودوية يفرض عليهم كتابة إنجيلهم بالفرنسية. و بما أن نظام الاسترقاق بعثر السود في جميع أنحاء العالم فليس لهم لغة مشتركة. فإذا أرادوا تحفيز المضطهدين على التوحيد بقي لزاما عليهم أن يستعملوا لغة المضطهد إذا فاللغة الفرنسية هي التي تساعد الشاعر الأسود على إسماع كلمته لأكبر عدد من السود فيما يتعلق بالمستوطنات الفرنسية على الأقل. ففي هذه اللغة المقشعرة الشاحبة و الباردة مثل سمائنا و التي قال عنها مالارمي : " هي اللغة المحايدة بامتياز، ذلك أن العبقرية المحلية تتطلب تخفيف كل لون زاه و كذا المبرقشات" ففي هذه اللغة نصف الميتة سيسكب داماس و ديوب و لالو و رابيا ريفيلو نار سماواتهم و قلوبهم. و لن يستطيعوا التواصل إلا بهذه اللغة. فالسود في تشابههم بعلماء القرن السادس عشر الذين لم يكونوا يتفاهمون إلا باللغة اللاتينية لن يتلاقوا إلا على المجالات المفخخة التي أعدها لهم البيض، لأن المستعمر خطط لنفسه أن يكون الدائم بين المستعمَرين إنه هنا، دائما

هنا، حتى أثناء غيابه و في أكثر الاجتماعات سرا. و نظرا لكون الكلمات أفكارا فإن الأسود عندما يعلن بالفرنسية أنه يرفض الثقافة الفرنسية فإنه يأخذ بيد ما يبعده بالأخرى، فينصب في نفسه آلة تفكير العدو تماما مثل المسحقة. ربما لا يكون لهذا أي معنى، إلا أن هذا النحو و هذه المفردات المعدة في أزمنة أخرى و على آلاف الأميال للاستجابة لحاجات أخرى و لتسمية أشياء أخرى لا تصلح في تقديم وسائل للأسود قصد الكلام عن نفسه و عن همومه و آماله. فاللغة الفرنسية والتفكير الفرنسي تحليليان فماذا تكون النتيجة إن كانت العبقرية السوداء تركيبية؟ فمفهوم "السودوية" و هو كلمة تبدو ذميمة، هو أحد المساهمات السوداء القليلة في قاموسنا. و في النهاية إن كانت السودوية مفهوما يمكن تحديده أو على الأقل وصفه فإنه يبقى عليها إدخال مفاهيم أخرى أكثر بدائية وتطابق المعطيات الراهنة للوعي الأسود: فأين الكلمات التي يمكنها تعيينها، كما نفهم شكوى الشاعر الهاييتي:

" و هذا القلب الذي لا يوافق
لغتي و لا تقاليدي،
و الذي تعضه مثل الكلاب
عواطف مستعارة و تقاليد
أوربية. هل تشعرون بهذا الألم
و هذا اليأس الذي لا مثيل له
إذ يلزمني أن أستحوذ بكلمات من فرنسا
على قلب أتاني من السنغال "

ليس صحيحا مع ذلك أن الأسود يعبر بلغة "أجنبية" ما دام يتعلم اللغة الفرنسية منذ صباه و هو بارع فيها حينما يفكر بصفته تقنيا أو عالما أو سياسيا. ربما لزم الكلام عن التباين الخفيف و الثابت الذي نلمسه بين ما يقول و ما يريد أن يقول حينما يتكلم عن نفسه سيبدو له أن روحا شمالية

تسرق أفكاره و تحتم عليها ببطء أن تعني تقريبا ما كان يريد، و بأن الكلمات البيضاء تشرب فكرته كما يشرب الرمل الدم. و إذا هو باغت العودة إلى ذاته و استجمع قواه و تروّى طرحت الألفاظ نفسها أمامه غريبة نصفها معان و نصفها أشياء. و لن يقول سودويته أبدا بكلمات دقيقة و فعالة تصيب هدفها كل مرة. و لن يقول سودويته نثرا. و لكن كل إنسان يعلم أن الشعور بالانهزام أمام اللغة المعتبرة وسيلة للتعبير المباشر هو المتسبب في كل تجربة شعرية.

ورد فعل المتكلم أمام انهزام النثر هو ما سماه باتاي تضحية الكلمات. و ما دمنا نستطيع الاعتقاد بأن توافقا مسبقا يتحكم في العلاقة بين الفعل و الكائن الأسمى فإننا نستعمل الكلمات دون أن نراها بثقة عمياء، إذ الكلمات أجهزة حاسة و أفواه و أيد و نوافذ مفتوحة على العالم. و في أول انهزام تسقط هذه الشقشقة بعيدا عنا، نشاهد المنظومة كلها و هي عبارة عن آلية معطلة ومقلوبة تضطرب أذرعتها الكبيرة للإشارة في الفراغ. و هكذا نحكم مرة واحدة على محاولة التسمية المجنونة، نفهم بأن الكلام نثر في أصله و النثر يمثل في أساسه الهزيمة. فالكائن ينتصب أمامنا مثل برج من الصمت، و إذا أردنا كذلك تلقيه لم نحققه إلا بالصمت ؛ "تذكر الموضوع الذي أخفته في الظل تعمدا كلمات ملمحة غير مباشرة أبدا، مساوية للصمت تماما". و لم يسبق لأحد أن أحسن القول بأن الشعر محاولة تعويذية توحي بوجود الكائن في اختفاء الكلمة الاهتزازي و به. فالشاعر، حينما يتزايد في ضعفه الكلامي و يصير الكلمات مجنونة، يجعلنا نرتقب، من خلال هذا الهرج و المرج الملغى ذاتيا كثافات صمتية كبيرة. و بما أننا لا نستطيع السكوت فعليا أن نصنع الصمت بالكلام. فالهدف العميق للشعر الفرنسي يبدو، من مالارمي إلى السرياليين، عبارة عن تدمير ذاتي للكلام. فالقصيدة غرفة مظلمة تتناطح فيها الكلمات مجنونة. أما تناطحها في السماء فاشتعال متبادل من حريقها و تتساقط نيرانا.

في هذا التوجه ينبغي رؤية جهد هؤلاء "الإنجيليين السود". إذ يردون على حيلة المستعمر بحيلة عكسية و مماثلة : فما دام المضطهد موجودا داخل اللغة التي يتكلمونها فسيتكلمون هذه اللغة لكي يدمروها.فالشاعر الأوربي اليوم يحاول تجريد الكلمات من إنسانيتها ليعيدها إلى الطبيعة. أما الشاعر الأسود فسينزع منها روحها الفرنسية و يكسرها و يلغي علاقاتها التقليدية، و يزاوجها بالعنف :

"بخطوات صغيرة لمطر اليساريع

بخطوات صغيرة لجرعة اللبن

بخطوات صغيرة لمدرجات الكريات

بخطوات صغيرة للهزات الزلزالية

نبات الإنيام في الأرض يمشي بخطوات

كبيرة لفجوات النجوم"

و لا يتبنى الشاعر الأسود هذه الكلمات إلا بعد إفراغها من بياضها جاعلا من هذه اللغة المتلاشية لغة شامخة مهيبة و مقدسة. هذه اللغة هي الشعر. فسود تناناريق و كايان و السود في بورت أوبرانس وسانْلوي يستطيعون الاتصال فيما بينهم بالشعر الأسود وحده بما أن الفرنسية تنقصها الكلمات والمفاهيم لتحديد السودوية و بما أن السودوية صمت فيستعملون عند ذكرها "كلمات إيحائية غير مباشرة أبدا تتحول إلى صمت مماثل". تقطعات الكلام : وراء السقوط الملتهب للكلمات يتراءى تمثال أسود عظيم و أبكم، و إذا ليست الكلمة التي يقولها الأسود ليرسم نفسه هي وحدها الشعرية، بل كذلك كيفيته الخاصة في استعمال وسائل التعبير المتوفرة لديه فوضعه يحفزه على هذا، قبل أن يفكر في الغناء يفر ضوء الكلمات البيضاء من نفسه ويستقطب و يتلاشى و هذا لا يلاحظ في أي جهة ما عدا في استعماله للكلمتين المقرونتين "أسود- أبيض" اللتين تغطيان الانقسام الكوني الكبير "النهار- الليل" و الصراع البشري بين

الأهلي والمستعمر. إلا أن لهذا الكلام ازدواجية منظمة. وعندما يقدمه المعلم للأسود فإنه يشحنه كذلك بمائه عادة لغوية ترسم أولوية الأبيض على الأسود. و سيتعلم الأسود القول التالي "أبيض مثل الثلج" للتعبير عن البراءة. و كذا سواد النظر أو الروح أو الخدعة. فكلما فتح فمه اتهم نفسه. اللهم إلا إذا جد لقلب هذا النظام. و عندما يقلب النظام بالفرنسية يصير حتما شاعرا : هل تخيلنا النكهة الغريبة التي يمكن أن توصلها إلينا عبارات مثل "سواد البراءة" و"ظلمات الفضيلة"؟ هذه هي النكهة التي نتذوقها في كل صفحات هذا الكتاب. وعندما نطالع مثلا :

"نهداك من سندس أسود بارزان ولامعان

وهذه الابتسامة البيضاء

للعينين

في ظل الوجه

توقظ في نفسي هذا المساء

الايقاعات الصماء

التي تنتشي بها هناك في بلد غينيا

أخواتنا

السوداوات و العاريات

وتبعث في نفسي

هذا المساء

غروبات سوداء يثقلها هيجان شهواني

لأن

روح البلد الأسود حيث ينام السلف

يعيش و ينطق

هذا المساء

ضمن القوة المضطربة على امتداد خصرك

الأجوف..."

يأتي الأسود طيلة هذه القصيدة لونا، بل أكثر من ذلك هونور، وإشعاعه اللطيف المنتشر يبدد عاداتنا. فالبلد الأسود الذي ينام فيه القدامى ليس صحيحا مظلما، إنه أرض شمس و نار. ولكن من جهة أخرى يعني تفوق الأبيض على الأسود تفوق المستعمر على الأهلي فقط، بل هذا التفوق يعبر عن عبادة النهار الكونية والمخاوف الليلية هي كذلك كونية. وفي هذا المعنى يعيد السود هذا النظام التسلسلي الذي كانوا يقلبونه. هم لا يريدون أن يكونوا شعراء الليل أي شعراء الانتفاضة الواهية و اليأس : إنهم يبشرون بطلوع فجر، فهم يحيون.

"الفجر الشفاف ليوم جديد"

وفي لحظة يسترجع الأسود على ريشتهم معناه في الشؤم الهتاك :

"الأسود أسود مثل البؤس"

هكذا يضج أحدهم، و الآخر بما يلي :

"حررني من ليل دمي"

و هكذا تجد كلمة أسود نفسها تتضمن في نفس الوقت كل الشر و كل الخير، فهي تشتمل على توتر لا يكاد يحتمل بين تصنيفين متناقضين : التصنيف الشمسي والتصنيف العرقي. و تفوز الكلمة في هذا بشعر خارق للعادة مثل تلك الأشياء المنكسرة ذاتيا التي تصنعها يدا ديشان والسرياليين. هناك سواد خفي لدى الأبيض و بياض خفي عند الأسود، أو اختلاج جامد من الوجود و العدم ربما لم يعبر عنه في أي مجال مثل ما عبر عنه بنجاح كبير في هذه القصيدة لسيزير :

"تمثالي الكبير مجروح، حجارة على الجبهة لحمي الكبير غير مبال نهارا، حبوب بدون شفقة لحمي الكبير ليلا، حبوب نهار..."

وسيذهب الشاعر بعيدا كذلك، حيث يكتب :

"وجوهنا جميلة مثل الطاقة العملية الحقيقية للقضاء المبرم".

ووراء هذه الفصاحة المجردة التي تذكر بلوتريامون نلاحظ الجهد الأكثر جرأة و الأكثر ذكاء لإعطاء البشرة السوداء معنى و لتحقيق التركبة الشعرية لوجهي الليل. فعندما يقول دافيد ديوب عن الأسود إنه "أسود مثل البؤس" فهو يعرض السواد مثل حرمان حقيقي من النور. إلا أن سيزر يوسع هذه الصورة ويعمقها : فالليل لم يعد غيابا، إنه رفض، ولم يبق السواد لونا إنه القضاء على هذا الضوء المستعار الذي يسقط من الشمس البيضاء. والثوري الأسود عدم لأنه يريد أن يكون فاقة خالصة : فإذا أراد بناء حقيقته وجب عليه بادئ ذي بدء إبادة حقيقة الآخرين. والوجوه السوداء، تلك الذكريات الليلية التي تلازم أيامنا، تمثل العمل القاتم للسلبية التي لا تتوانى في قضم المفاهيم هكذا وبانقلاب يذكر بغرابة انقلاب الأسود المطعون في كرامته، والمشتوم عندما يدعي لنفسه بأنه "الأسود القذر" الأمر الذي يبين أن جانب الظلمات المانع هو الذي يؤسس قيمتها. فالحرية هي لون الليل.

التدميرات وإحراق الكلام و الرمزية السحرية وازدواجية المفاهيم : كل الشعر الحديث موجود هنا بجانبه السلبي. وهذا ليس تلاعبا مجانيا. فوضعية الأسود و"تمزقه" الأصلي، و الاستلاب الذي يفرضه عليه تفكير أجنبي تحت غطاء الإدماج، كل هذا يحتم عليه استرجاع وحدته الوجودية كأسود، أو بعبارة أخرى، استرجاع صفائه الأصلي لمشروعه بزهد مستمر من وراء عالم الخطاب. فالسودوية، مثل الحرية، هي نقطة الانطلاق والوصول الأخير : والسر يكمن في تحويلها من الخاص إلى العام. والمراد لدى الأسود أن يموت بالثقافة البيضاء لينبعث بالروح السوداء تماما مثلما يموت الفيلسوف الأفلاطوني بجسمه لينبعث للحقيقة و هذه العودة الجدلية والباطنية للجذور تستلزم حتما منهجية، إلا أن هذه المنهجية لا تظهر في مجموعة من القواعد لتوجيه الذهن. هذه هي الطريقة ومطبقها واحد. إنها القانون الجدلي

للتحويلات المتتالية التي توجه الأسود نحو تطابقه مع نفسه في السودوية. وهذا لا يعني بالنسبة له أن يعرف ولا أن يتجرد من نفسه بافتتان، بل عليه رفع القناع و الرجوع إلى ما هو عليه.

يوجد طريقان متقاربان للوصول إلى هذه البساطة الأصلية للوجود: طريق موضوعي والآخر ذاتي. ويستعمل شعراء مختاراتنا تارة طريقا وتارة الآخر، وأحيانا الطريقين معا. إذ يوجد بالفعل سودوية موضوعية تعبر عن نفسها بالعادات و الفنون والأغاني ورقصات الشعوب الإفريقية. ويختار الشاعر لنفسه رياضة روحية تحتم عليه التأثر بالإيقاعات البدائية، وتجسيد فكره في الأشكال التقليدية للشعر الأسود. فكثير من الشعراء المجموعين في هذه المختارات يسمون أنفسهم طبل "الطام طام" لأنهم يقلدون الطبالين الليليين في أوزان إيقاعهم وهي أحيانا خاطفة و منتظمة وأحيانا أخرى ملتوية وواثبة.

فالعمل الشعري يصير حينئذ رقصة للروح. و هكذا يدور الشعر حول نفسه مثل الدرويش حتى الإغماء، وقد نصب في نفسه زمان أسلافه ويشعر بسيلان هذا الوقت بتقطعات غريبة، راجيا أن يتواجد في هذا السيلان الإيقاعي. وأستطيع أن أقول إنه يحاول أن تستحوذ عليه سودوية شعبية، ويرجو أن أصداء طامطامه ستحضر لإيقاظ الغرائز السحيقة في القدم و التي تنام في ذاته. وهكذا نشعر عند تصفح هذه المختارات بأن طبل الطمطام يهدف إلى نوع من الشعر الأسود، مثلما عاشت النشيدة والقصيدة الغنائية في شعرنا، ويستلهم شعراء آخرون مثل رابيمانا نجارا من الإعلانات الملكية وآخرون كذلك من منبع "الهاين تينيس" الشعبي. ويتمثل المركز الهادئ لهذه الضوضاء المركبة من الإيقاعات ة الأغاني والضجيج في شعر بيراغو ديوب، في جلاله الساذج، هذا الشعر وحده هادئ، إذ ينبع مباشرة من حكايات القصاصين ومن التقليد الشفوي. وتبقى كل المحاولات الأخرى تقريبا بطابع التشنج والتقلص واليأس لأنها

تريد اللحاق بالشعر الفلكلوري عوض أن تنبثق منه.ولكن الأسود؟ رغم كل البعد الذي يفصله عن "السواد الذي ينام فيه أجداده" أقرب إلى العهد الكبير رقيا إليه أو كما يقول مالارْمي "الكلمة تخلق الآلهة". ويستحيل تقريبا على شعرائنا أن يعودوا إلى التقاليد الشعبية، إذ تفصلهم عنها عشرة قرون من الشعر العلمي دون أن ننسى أن الإلهام الفولكلوري قد انقطع. اللهم إلا إذا حاولنا أن نقلد ببساطة من الخارج. أما سود إفريقيا فلا يزالون عكس ذلك في عهد الخصوبة الأسطورية، والشعراء الفرنسيو اللسان منهم لا يتلاعبون بهذه الأساطير مثلما نتلاعب بأغانينا، بل يفتتنون بسحرها حتى تستطيع السودوية المشار إليها بإجلال أن تنبثق في نهاية التعوذة. لهذا أسمي هذه الطريقة "للشعر الموضوعي" سحرا أو فتنة.

وقد اختار سيزار عكس ذلك أن يدخل بيته القهقري. وبما أن أوريديس هذه ستتبدد كالدخان إذا دار أورفي الأسود هذا نحوها، وسينزل في الطريق الملكي المؤدي إلى روحه موجها ظهره نحو قاع المغارة، وسينزل تحت مستوى الكلمات و المعاني "لقد وضعت لكي أفكر فيك كل الكلمات في مكان مضمون". فدون السلوكات اليومية وفي مستوى "المراجعة" ودون الصعوبات الأولى للانتفاضة و بإعراض وعيون مغمضة لتمس الأرجل الماء الأسود للأحلام ورغبة الغرق فيه. هنا تنتصب الرغبة والحلم مرعدين مثل الغطيان يرقصان الكلمات مثل الحطام ويرميانها مفرقعة ومختلطة على الساحل.

"الكلمات تتفاوت، وذلك نحو سماء وأرض لا يستطيع الأعلى ولا الأسفل إخفاءهما، إن هذا في الحقيقة نوع من الجغرافية القديمة... بل تحدث عملية تدرج حقيقي ذات قابلية غريبة للتنفس في المستوى الغازي للجسم الصلب والسائل والأسود والأبيض والليل والنهار".

هنا نقف على الطريقة السريالية القديمة (لأن الكتابة الآلية طريقة مثل التزهد تتطلب تدريبا وتمارين وانطلاقة) إذ لا بد من الغوص تحت القشرة

السطحية للواقع والحس المشترك، والعقل الراشد للوصول إلى عمق الروح وإيقاظ قوي الشهوة السحيقة في القدم. تلك الشهوة التي تجعل الإنسان يرفض كل شيء و يحب كل شيء،والتي تأتي عبارة عن نفي جذري للقوانين الطبيعية وللتمكن بل تصير دعوة للمعجزة. والتي تغوص بالإنسان بطاقتها الكونية وسط الطبيعة الجياشة وترفعه في نفس الوقت فوق الطبيعة وذلك بإعلان حقه في عدم رضاه. ومع ذلك ليس سيزار أول أسود ينهج هذا النهج، لقد أسس قبله إيتيان ليرو "الدفاع الشرعي". "ولم يكن الدفاع الشرعي" مجلة فحسب كما قال سانغور بل كان حركة ثقافية. فانطلاقا من التحليل الماركسي لمجتمع "إيل" كان يكتشف ضمن الآنتيي النسل المنحدر من العبيد السود الأفارقة الذين أرغموا على البقاء طيلة ثلاثة قرون في وضعية العامل الكادح المقربة من الحيوانية. وهكذا كان يجزم بأن السريالية وحدها يمكنها تحريره من محرماته و التعبير عنه برمته".

ولكن بالضبط إذا أردنا المقاربة بين ليرو وسيزار فلن يفوتنا أن نندهش أمام تباينهما، ويمكن المقارنة أن تجعلنا نلمس البوْن الشاسع للسريالية البيضاء عنها مستعملة لدى أسود ثوري. وليرو كان رائدا حيث استعمل السريالية "كسلاح معجز" وأداة بحث ونوع من الرادار يرسل للاصطدام في الأعماق السحيقة. إلا أن أشعاره تبقي فروض تلميذ إذ هي محاكاة حضرية، فهي "لا تتجاوز" نفسها، بل هي بالعكس تنغلق على نفسها.

"الشعور القديمة

تلصق بالفروع عمق البحار الخالية

حيث لم يبق جسمك سوى ذكرى

وحيث الربيع يقلم أظافره،

مروحة ابتسامتك الملقاة بعيدا

فوق الديار التي لا نريدها..."

"مروحة ابتسامتك"، "والربيع الذي يقلم أظافره" هنا نتعرف مجازا على تكلف الصورة السريالية ومجانيتها تعبيرا عن الطريقة الدائمة والمتمثلة في محاولة الوصل الكلمتين الأكثر بعدا مع رجاء غير مؤسس أن هذه "المخاطرة" ستبدي لنا وجها خفيا من الوجود. فلم أر في هذه القصيدة ولا في غيرها إلا ليرو مطالبا بتحرير الأسود، وربما طالب فوق ذلك بالتحرير الشكلي للخيال، وفي هذه اللعبة المجددة تماما لم يذكر أي اجتماع للكلمات إفريقيًا ولو من بعيد، أخرجوا هذه القصائد من هذه المختارات، واخفوا اسم كاتبها : هنا أتحدى أي أحد أسود كان أبيض إن لم ينسب هذه القصائد إلى مساعد أوريي للثورة السريالية أو للمينوتور. ذلك لأن هدف السريالية من وراء الأجناس والظروف ومن وراء الطبقات الاجتماعية ومن وراء حريق الكلام، أن تجد ظلمات باهرة صامتة لا تعارض حينئذ أي شيء ولو كان النهار، لأن النهار مثل الليل وكل المتناقضات تذوب وتنصهر فيها. وهكذا يمكننا أن نتكلم عن انعدام التأثر والشخصية للقصيدة السريالية تماما مثل انعدام التأثر والشخصية لدى البارناص.

وعكس ذلك تجد القصيدة عند سيزار تنفجر وتدور حول نفسها مثل الصاروخ، تخرج منها شموس تدور وتتفجر عن شموس أخرى، عبارة عن تجاوز مستمر. ولا يكمن الأمر في الالتحاق بوحدة المتناقضات الهادئة ولكن في توتير أحد النقيضين في الزوج "الأسود- الأبيض" في تعارضهما مثل العورتين. وإن كثافة هذه الكلمات المرمية في الجو مثل الحجارة التي يرميها البركان تعبير عن السودوية التي تحدد نفسها ضد أوريا والاستعمار. وما يدمره سيزار ليس هو كل الثقافة، بل الثقافة البيضاء. وما يبديه للعيان ليس هو الرغبة في كل شيء، إنما هي الطموحات الثورية للأسود المضطهد. وما يلمسه في نفسه ليس هو الروح إنما هو شكل آخر للبشرية الواقعية والمحددة بهذا نستطيع أن نتكلم هنا عن كتابة آلية ملتزمة وموجهة كذلك، ليس لتدخل التفكير ولكن لأن الكلمات والصور

تعبر دائما عن نفس الهاجس المحرق. السريالي الأبيض يجد في نفسه راحة البال، ويجد سيزار الصلابة الشاخصة للمطالبة والاستياء. وكلمات ليرو تنتظم في استرخاء وتنفس، من الضغط وتراخي العلاقات المنطقية حول مواضيع عريضة ومبهمة. كلمات مضغوطة فيما بينها ومقواة بهيامه الهائج. حيث يربط بين الأكثر تباعدا خيط خفي للكراهية والأمل. قارنوا مثلا عبارة "مروحة ابتسامتك الملقاة بعيدا" التي هي نتاج للعب الخيال الحر ودعوة للحلم، مع :

"ومناجم الراديوم الدفينة في عمق براءاتي
ستقفز حبوبا
في مناقر الطيور
والوزن المكعب للنجوم
سيكون الاسم المشترك لحطب التدفئة
المجموع من طمى الأوردة المغنية ليلا"

حيث "الكلمات المتنافرة" في القاموس تنتظم للإيحاء "بفن شعري" أسود.

ولنقرأ ما يلي :

"وجوهنا جميلة مثل السلطة العملية الحقيقية للقضاء المبرم"

ولنقرأ كذلك :

"البحار المملوءة بالجزر التي تقرضها أصابع الورود قذيفة اللهب وجسمي المصعوق السليم"

هذه قمة تمجيد قمل البؤس الأسود الواثب في طيات شعور المياه، "جزرا" مع خيط النور، تنقرض تحت أصابع الفالية السمائية، أي الفجر بأصابع الورد، هذا الفجر للثقافة اليونانية والمتوسطية التي انتزعها سارق أسود من القصائد الهوميرية المقدسة، استبعد فجأة أظفار الأميرة المستعبدة توسان لوقارتير قصد تفجير الطفيليات المنتصرة للبحر الأسود، عبارة عن الفجر الذي يفور فجأة ويتحول ويرمي النار مثل سلاح

البيض الوحشي. وقاذفات اللهب وسلاح العلماء وسلاح الجلادين. هته الأسلحة التي تصعق بنارها البيضاء العملاق الأسود الذي سيقوم مكتملا وأبديا للهجوم على أوريا و السماء. وينتهي التقليد السريالي الكبير مع سيزير ليأخذ معناه النهائي ويضمحل: إنه السريالية، تلك الحركة الشعرية الأوربية التي يسرقها من الأوربيين أسود ويوجهها ضدهم وقد عين لها وظيفة دقيقة التحديد. وقد سبق لي أن بينت في مكان آخر كيف تنغلق الطبقة الشغيلة برمتها أمام هذا الشعر المدمر للرشد: فالسريالية في أوربا وبعدما تخلى عنها الذين كان في إمكانهم أن ينعشوها بدمائهم انحطت وتناثرت. ولكن في الوقت الذي تنقطع فيه السريالية عن الثورة نراها في الأنتيل تنضم إلى فرع آخر من الثورة الكونية وتزدهر في وردة عظيمة داكنة. وإبداع سيزير يكمن في أنه صب همه الضيق والقوي كأسود ومضطهد ومناضل في عالم الشعر الأكثر تدميرا والأكثر حرية والأكثر ميتافيزيقا، في الوقت الذي لم يستطع فيه إيلوار وآراغون إعطاء معنى سياسي لشعرهما. وفي النهاية ما يصدر عن سيزر كصرخة ألم وحب وكراهية هو السودوية- الموضوع. هنا كذلك يتبع التقليد السريالي الذي يريد من القصيدة أن تتموضع، وكلمات سيزير لا تصف السودوية ولا تعينها ولا تقلدها من الخارج مثلما يفعل الرسام مع نموذجه الماثل أمامه إنها تصنعها وتركبها أمام أنظارنا. فالسودوية الآن شيء نستطيع ملاحظته وتعلمه. والطريقة الذاتية التي اختارها تلتقي مع الطريقة الموضوعية التي سبق لنا أن تكلمنا عنها أعلاه: فهو يخرج الروح السوداء من داخله في الوقت الذي يريد فيه الآخرون استبطانها. والنتيجة النهائية واحدة في الحالتين. فالسودوية هي ذلك الطامطام البعيد في الشوارع المظلمة في داكار، وهي تلك الأصوات القوية الخارجة من نافذة هايتية والمنزلقة حذو الطريق، وهي ذلك القناع الكونغولي، وهي كذلك تلك القصيدة لسيزير، سائلة اللعاب والدامية والمليئة بالنخامة والمتمرغة في الغبار كالدودة المقطوعة. وهذا الاختلاج المزدوج

للامتصاص واللفظ يدق إيقاع القلب الأسود في جميع صفحات هذه المختارات. فما هي إذا هذه السودوية. هذا الهم الوحيد للشعراء وهذا الموضوع الوحيد لهذا الكتاب؟ الجواب الأول هو أن الأبيض لا يستطيع أن يحسن الكلام عنها إذ لا يمتلك التجربة الداخلية ولا توجد في اللغات الأوربية كلمات تمكننا من وضعها. وعلي إذا أن أترك القارئ يلقاها خلال هذه الصفحات ويتعرف عليها حسب ما يراه صالحا له. وربما كانت هذه المقدمة ناقصة إذا لم أبين أن هذا المفهوم المعقد هو في قلب السودوية الشعر بعينه،هذا بعد الإشارة إلى أن البحث عن الغزال الأسود كان قوام اختراعها الأصلي وفي طرقها يعبر عن أصالة جمعها للطموحات الثورية وللهم الشعري. وسأكتفي إذا بدراسة هذه القصائد موضوعيا لمجموعة من الشهادات وجرد بعض مواضيعها الأساسية. يقول سانغور : "ما يصنع سودوية قصيدة الأسلوب أكثر من الموضوع والحرارة الانفعالية التي تحول الكلمة إلى فعل". والأحسن أن نعلم أن السودوية ليست حالة ولا مجموعة محدودة للمساوئ والمحاسن أو صفات فكرية وأخلاقية، وإنما السودوية وضعية عاطفية إزاء العلم. لقد تخلى علم النفس منذ بداية هذا القرن عن فوارقه المدرسية الكبرى. فنحن لم نبق نؤمن بأن أحداث الروح تنقسم إلى إرادات أو أعمال، وإلى معارف أو إحساسات، وإلى عواطف أو استكانات عمياء. نحن نعلم أن الشعور عبارة عن كيف نحيا علاقتنا بالعالم المحيط بنا ويتضمن نوعا من فهمنا للكون. إنه جهد لروح واختيار ذاتي وللغير، وكيفية لتجاوز المعطيات الفظة للتجربة، وباختصار هو مشروع مثل مشروع الفعل الإرادي. فالسودوية بلغة هيدغار هي الكائن في العالم بالنسبة للأسود.

وهاكم مع ذلك ما يقول لنا سيزير :

"ليست سودويتي حجارة، صممها مندفع ضد

ضجيج النهار،

ليست سودويتي وجه وسادة ماء ميت

فوق العين الميتة للأرض،

ليست سودويتي برجا ولا كاتدرائية،

إنها تغوص في اللحمة الحمراء للأرض

إنها تغوص في اللحمة المتوهجة للسماء

إنها تثقب الضنى الكثيف بصبرها القائم "

فالسودوية تصفها هذه الأبيات الجميلة على أنها فعل أكثر من كونها استعدادا، إلا أن هذا الفعل عزم باطني، فليس الأمر أخذ خيرات العالم باليدين وتحويلها، إنما الأمر أن يوجد الإنسان وسط العالم. وتبقى الصلة بالكون امتلاكا، ولكن هذا الاحتلال ليس تقنية. والاحتلال بالنسبة للأبيض هو التحويل. الواقع أن العامل اليدوي الأبيض يستعمل أدوات ليست ملكا له . أما تقنياته فهي على الأقل ملكه. وإذا صح أن الاختراعات العظمى للصناعة الأوربية جاءت نتيجة استخدام يد عاملة تجلب من الطبقات الوسطى، أو على الأقل تظهر لهم مهنه نجار الهياكل و النجار والخراط تراثا حقيقيا، ولو أن اتجاه الإنتاج الرأسمالي الكبير يهدف كذلك إلى تجريدهم من "السرور أثناء العمل". أما العامل اليدوي الأسود فلا يقل في حقه أن يقول إنه يعمل بأدوات مستعارة، بل التقنيات كذلك مستعارة.

وينادي سيزير إخوانه السود :

"الذين لم يخترعوا لا البارود ولا البوصلة

الذين لم يعرفوا أبدا كيف يسيطرون على البخار ولا على الكهرباء،

الذين لم يستكشفوا البحار ولا السماء "

ولكن هذه المطالبة المتعالية النافية للتقنية تقلب الوضعية، ما كان يمكن أن يظهر نقصا يتحول إلى مورد إيجابي للغنى. فعلاقتنا التقنية بالطبيعة تبرزها كما صافيا وفتورا وتخرجية ؛ إنها تموت. وبواسطة رفض الأسود المتعالي ليكون صانعا فإنه يعيد لها الحياة، وكأنه في الثنائية. "الرجل-الطبيعة" تولد حتما سلبية أحد الطرفين نشاط الآخر وفي الحقيقة ليست

السودوية سلبية ما دامت "تخرق لحم السماء والأرض". إنها "صبر"، والصبر يبدو تقليدا نشيطا للسلبية. فعمل الأسود هو أساسا عمل على نفسه. فالأسود ينتصب ويتوقف فاتنا للطيور و الأشياء تأتي لتحط فوق أغصان هذه الشجرة الكاذبة. إن هذا فعلا جلب للعالم، إلا أنه جلب سحري بواسطة الصمت و الراحة : عند محاولة الأبيض التأثير على الطبيعة فإنه يضيع بضياعها، أما الأسود فإنه يؤثر أولا في نفسه وبهذا يزعم أنه يكسب الطبيعة عندما يكسب نفسه :

"إنهم يستسلمون مقبوضين لجوهر كل شيء،

جاهلين للمساحات ولكن مقبوضين لدى حركة كل شيء،

لا يهمهم أي حساب ولكن لاعبين لعب هذا العالم

هم حقيقة كبار أبناء العالم،

المتأثرين بكل نسمات العالم...

لحم لحم العالم مختلجا بحركة العالم نفسها"

ولا يمكننا عند هذه القراءة أن نتهرب من التفكير في التمييز الذي وضعه برغسون بين الذكاء و الحدس. وبالضبط ينادينا سيزير :

"المنتصرون العلماء بكل شيء والسذج"

ويعرف الأبيض عن الآلة كل شيء. ولكن الكل يخدش وجه الأشياء، ولا يعرف المدة ولا الحياة. أما السودوية فهي عكس ذلك تفهم بالتعاطف. وسر الأسود أن منابع وجوده وجذور الكائن الأسمى متماثلة.

وإذا أردنا تفسيرا اجتماعيا لهذه الميتافيزيقا، قلنا إن شعر فلاّحين يقابل هنا نثر مهندسين : وليس صحيحا بالفعل أن الأسود لا يملك أي تقنية، ذلك أن علاقة مجموعة بشرية ما بالعالم الخارجي هي دائما علاقة تقنية بطريقة أو بأخرى. وأقول عكس ذلك بأن سيزير مجحف : فطائره سانت إيكسيبري التي تثني الأرض تحتها كالبساط هي جهاز للكشف. إلا أن الأسود فلاح قبل كل شيء : والتقنية الفلاحية هي "صبر مستقيم"، وتثق بالحياة

وتنتظر. فعملية الغرس تخصيب للأرض، وبعد ذلك يلزم الغارس أن يثبت مكانه منتظرا حيث : "كل ذرة صمت عبارة عن فاكهة ناضجة" وكل لحظة تأتي تثمر مقدار مائة مرة ما قدم الإنسان، والعامل اليدوي لا يجد في إنتاجه المصنوع إلا ما وضعه فيه. فالرجل ينمو في نفس الوقت الذي تنمو فيه قموحه. فهو يتجاوز نفسه ويصفر من دقيقة إلى أخرى. ولا يتدخل أثناء مراقبته لهذا البطن الضعيف الذي لا ينتفخ إلا لحمايته.

فالقمح الناضج عبارة عن عالم صغير لأنه تطلب لنضجه تظافر الشمس والأمطار والريح. والسنبلة هي في نفس الوقت شيء طبيعي جدا وحظ مستبعد جدا. قد أثرت التقنيات على الفلاح الأبيض، إلا أن الأسود بقي هو الفحل الكبير للأرض، بل مني العالم. ووجوده هو الصبر النباتي الكبير، وعمله هو تكرار الجماع المقدس السنة تلو الأخرى. فهو خالق ومتغذ لأنه يخلق. فالحرث و الغرس و الأكل عبارة عن جماع مع الطبيعة. وربما كان الحلول الجنسي لهؤلاء الشعراء هو أول ما يلفت الانتباه : من هنا يلتحقون بالرقصات و الطقوس الجنسية للسود الأفارقة. وكتب سانغور :

"أوهوا ! كونغو النائمة في سريرك الغابي،

يا ملكة إفريقيا المقهورة

فليرفع علمك عاليا

لأنك أنثى برأسي وبلساني، لأنك أنثى ببطني "

وأضاف سانغور :

"وسوف أرتقي مرارا بطنك الناعم من الكثبان وأفخاذ النهار الوجاهة... "

ويقول رابياريفيلو :

"دم الأرض وعرق الحجر ومني الريح "

ويقول لالو :

"يئن تحت السماء الطبل المخروطي

وهو روح الأسود

اختلاجات ثقيلة لرجال متوهجين، وأنات لزجة لمحبوبة
انتهاكا لهدوء الليل "

نلاحظ هنا أننا بعيدون عن الحدس العفيف واللاجنسي عند بارغسون. إذ لم يبق الأمر تجاوبا عاطفيا مع الحياة بل صار تعاطيا للحب مع جميع أشكالها. ففي نظر التقني الأبيض يبدو الإله بادئ ذي بدء مهندسا. هذا جيبيتار يأمر بالدمار ويضع له قوانين. والإله المسيحي يتصور العالم بإدراكه ويحققه بإرادته : فعلاقة المخلوق ليست جنسية أبدا، باستثناء بعض الباطنيين الذين تشك الكنيسة كثيرا في أمرهم. رغم أن الغرامية الباطنية لا صلة لها بالتخصيب إذ أنها انتظار سلبي تماما لاختراق عقيم. نحن معجونون من حما تماثيل صغيرة حررتها أيدي النحات الإلاهي. فلو كانت الأشياء المصطنعة المحيطة بنا تستطيع عبادة خالقيها لكانت تعبدتنا دون ريب مثلما نعبد الواحد المقتدر. أما بالنسبة لشعرائنا السود فالكائن عندهم عكس ذلك ينبع من العدم مثل قضيب ينتصب، والخلق ميلاد عظيم وأزلي. فالعالم لحم وولد لحم. فوق البحر وفي السماء وعلى الكثبان وفوق الحجر وفي الريح يجد الأسود نعومة بشرة الإنسان. إذ هو يلامس بطن الرمل وأفخاذ السماء : إنه "لحم لحم العالم" إنه "ذو مسام إزاء كل نسماته" ولكل طلوعه. فهو تارة أنثى الطبيعة وتارة بعلها، وعندما يجامع امرأة من جنسه تظهر له العملية الجنسية احتفالا بسر الكائن. وهذا الدين المنوي شبيه بضغط روحي يوازن نزعتين متكاملتين ؛ شعوره الحركي بكونه ينتصب، وشعوره الصم والصابر لصفة أنثوية قوية فيه لكونه نباتا ينمو. وهكذا تظهر السودوية في أصلها العميق خنثوية.

"ها أنت
واقف وعار
حمأ أنت وتتذكره
ولكنك في الحقيقة ولد هذا الظل المخاض

الذي يشبع ثانية باللبن القمري

ثم تتشكل ببطء بشكل برميل

فوق هذا الجدار القصير الذي تعبره أحلام الأزهار

ورائحة الصيف المستريح.

الشعور والاعتقاد بأن جذورا تنبت في رجليك وتجري وتلتوي مثل الثعابين العطشى نحو عنصر ما باطني " (رابيا ريفيلو)

ويقول سيزير :

"أيتها الأم المتعبة جدا، أم بلا أوراق، أنت لماع ولا تحملين إلا فصوصا. أنت دباء، وما أنت إلا مجمع... "

إن هذه الوحدة العميقة للرموز النباتية والرموز الجنسية هي بالتأكيد أكبر ابتكار للشعر الأسود، خصوصا في زمن مثلما بينه ميشال كروج تهدف فيه صور الشعراء البيض إلى تحويل طبيعة البشر إلى معدن. أما سيزير فهو عكس ذلك يكسب البحر والسماء والحجارة طبيعة النبات أو الحيوان. والأصح القول بأن شعره عبارة عن تزاوج نساء ورجال مسخوا حيوانات ونباتات وأحجارا مع أحجار ونباتات وحيوانات مسخت رجالا. وهكذا يشهد الأسود على الغرام الطبيعي ويظهره ويمثله. وإذا رغبنا في إيجاد وجه شبه في الشعر الأوربي تحتم علينا الرجوع إلى لوكراس الشاعر الفلاح الذي كان يحتفل بفينيس، الإلهة الأم في الوقت الذي لم تكن فيه روما أكبر من سوق فلاحي كبير. أما في أيامنا هذه فلا أرى إلا لاورانس الذي كان له شعور كوني بالجنس، ولو أن هذا الشعور يبقى عنده أدبيا جدا.

ولكن رغم كون السودوية تظهر في عمقها ذلك التدفق الساكن، وحدة الانتصاب الجنسي والنمو النباتي، فإنه لا يكفينا حصرها في هذا الموضوع الشعري الوحيد، إذ يوجد هناك موضوع آخر يخترق هذه المنتخبات مثل الشريان العظيم :

"إن الذين لم يخترعوا لا البارود ولا البوصلة...يعرفون بلد الآلام في أدنى خفاياه..." يواجه الأسود التهيج النفعي السخيف لدى الأبيض بالأصالة التي تعلمها من آلامه. وبما أن الجنس الأسود لمس عمق التعاسة فإنه جنس مختار. ورغم أن هذه الأشعار من أولها إلى آخرها ضد المسيحية فإنه يمكننا من هذا المنظار القول بأن السودوية هي "آلام السيد المسيح": فالأسود الواعي نفسه يظهر أمام نفسه كالرجل الذي أخذ على عاتقه كل الوجع الإنساني والذي يتألم للجميع إلى ما فيهم الأبيض.

"سيعبر بوق آمسترونغ" يوم القيامة عن أوجاع الإنسان" (بول نيجار).

ولا بد من الملاحظة حالا أن الأمر ليس أبدا ألم خنوع. كنت أتكلم آنفا عن بارغسون ولوكراس، ويستهويني الآن ذكر ذلك الخصم الكبير للمسيحية، ألا وهو نيتش و"ديونيسية". فالأسود مثل الشاعر الديونيسي يحاول الدخول في أوهام النهار البراقة ويلاقي على بعد مائة قدم تحت المساحة الأيولينية الألم غير القابل للتفكير كجوهر كوني للإنسان. وإذا أردنا التعميم أمكننا القول بأن الأسود يذوب في الطبيعة كلها على أساس محبوب جنسي لدى الحياة ويضطلع بالرجولة على أساس كونه حبا للألم الثائر. وهكذا نلمس الاتحاد الأساسي لهذه الحركة الثنائية إذا نحن فكرنا في العلاقة المتزايدة التقارب التي يضعها الأطباء النفسانيون بين القلق والرغبة الجنسية. ولا يوجد إلا انبثاق واحد متغطرس نستطيع أن نسميه رغبة منغرسة في الألم وألم انغرز كالسيف عبر رغبة كونية واسعة. وذلك "الصبر المستقيم" الذي كان سيزير يذكره هو كذلك من نفس التفجر، أي نمو نباتي وصبر مقابل الألم. وهذا الصبر يقيم في عضلات الأسود نفسها، ويساند الحمال الأسود الذي يصعد مع وادي النيجر طوال ألف كيلومتر في شمس محرقة وبحمل بوزن قنطار متزن فوق رأسه. ولكن إذا استطعنا بمعنى ما أن نمثل خصوبة الطبيعة بتكاثر الآلام. وهذا بمعنى آخر ديونيزي، فهذه الخصوبة تتجاوز بغزارتها الألم وتغرقة في وفرتها المبدعة. وهي شعر وغرام ورقص وربما تحتم على الملاحظ لفهم هذه

الاتحاد غير القابل للحل بين الألم والجنس والفرح. أن يكون قد رأى سود هارلام يرقصون على إيقاع نغمات ذلك الـ "بلوز" وهي الأنغام الأكثر إيلاما في العالم، إن الإيقاع هو الذي يرسخ بالفعل تلك المظاهر العديدة للروح السوداء، والإيقاع هو الذي يظفي خفته النيتشية على تلك الحدوس الديونزة، إنه الإيقاع أي الطامطام والجاز وقفزات تلك الأشعار هو الذي يصور زمانية الوجود الأسود. وعندما ينبئ شاعر أسود إخوته بمستقبل أفضل فإنه يصف لهم تحررهم في شكل إيقاع :

"ماذا ؟

إيقاع

موج بالليل عبر الغابات، لا شيء، أو روح جديدة

رنة

نبرة

شدة

تمدد

اهتزاز على مستويات في النخاع يفض ويقلب في مشيته جسما هرما نائما، يمسك خاصرته

ويخرقها

ويدور

ويواصل اهتزازه في الأيدي والكلى، والجنس والأفخاذ والمهبل..."

ولكن يجب الذهاب أبعد من هذا كثيرا : إن هذه التجربة الأساسية للألم فيها التباس، وبها سيصير الوعي الأسود تأريخيا. وبالفعل مهما كان الجو غير المحتمل على الوضعية الحالية لهذه التجربة، فإن الأسود لا يرجع إليها أولا عندما يعلن أنه لمس عمق الألم الإنساني. إنه قد عرف فظاعة معرفة الاستعباد. وعند هؤلاء الشعراء الذين ولد أغلبهم ما بين **1900** و**1918**، يبقى الاستعباد الذي ألغي نصف قرن من قبل، أقوى الذكريات :

"إن لكل يوم من أيامي الحاضرة على أيامي الماضية عيونا كبيرة تتقلب من الغل على العار،

وانظر كذلك إلى اختبالي في الماضي

من ضربات حبل معقد لأجسام معذبة

من إبهام الرجل إلى الظهر المحترق

من لحم ميت بمسعر حديدي أحمر

لأذرع كسيرة تحت السوط الهائج..."

هذا ما كتبه داماس، شاعر الغويان، وقال بريار الهايتي :

"غالبا ما تحس مثلي بالانحناءات المنهكة تستيقظ بعد قرون قاتلة

وتوقظ بالدم في لحمك الجراح القديمة..."

لقد شرب الأسود أثناء قرون الاستعباد كأس الهموم حتى الثمالة. والاستعباد واقع قد مضى، فلا مؤلفونا ولا آباؤهم عرفوه بطريقة مباشرة. إلا أنه كابوس رهيب إلى حد أن الفتيان السود أنفسهم لا يعرفون هل استيقظوا منه فعلا. من أدنى الأرض إلى أقصاها توجد عند السود. الذين فرقتهم اللغات و السياسة وتأريخ مستعمريهم، ذاكرة جماعية مشتركة ولا تأخذ الحيرة من هذا، إذا تذكرنا أن الفلاحين الفرنسيين سنة 1789 كانوا لا يزالون يعرفون الذعر المرعب الذي كان أصله يرتقي إلى حرب المائة عام. وهكذا عندما يرجع الأسود إلى تجربته الأساسية، فتظهر هذه فجأة ذات بعدين : هي في نفس الوقت الذاكرة الغضة لماض تأريخي، الأمر الذي يذكرني هنا بباسكال الذي كان يكرر بدون ملل أن الإنسان مركب غير معقول من الميتافيزيقا والتأريخ، لا يفسر في عظمته إن هو آت من الحمإ ولا في بؤسه إن كان باقيا كما صنعه الله، وكان يتحتم لفهمه النظر إلى حادث لا مفر منه، ألا وهو حادث السقوط. وفي هذا المعنى بالذات يسمي سيزير جنسه بـ "الجنس الساقط". وبمعنى آخر أرى جليا المقاربة التي يمكن وجودها بين الوعي الأسود والوعي المسيحي :

فالقانون القمعي للاستعباد يذكر بقانون العهد القديم الذي يروي آثار الخطيئة. وإلغاء الاستعباد يذكر ذلك الحدث التأريخي الآخر : الافتداء. إن الأبوية المتلطفة للرجل الأبيض بعد **1848** وأبوية الرب الأبيض بعد آلام السيد المسيح تتشابهان إلا أن الخطيئة غير المغتفرة التي يكتشفها الأسود في عمق ذاكرته، ليست خطيئته شخصيا، إنها خطيئة الأبيض. فالحدث الأول في التأريخ الأسود هو فعلا خطيئة أصلية : ولكن الأسود هو ضحيتها البريئة. لهذا يخالف تصوره للألم جذريا تقبل الآلام لدى الأبيض. وإذا كانت أغلب أشعاره عنيفة ضد المسيحيين إلى حد بعيد، فلأن دين البيض يظهر في عين الأسود- بأكثر وضوح مما هو في عين الطبقة الكادحة الأوربيية، مخادعة : فهذا الدين يريد أن يقحم الأسود في المسؤولية عن جريمة هو ضحيتها. بأن يرى في الاختطافات والمجازر والاغتصابات والتعذيبات التي أدمت إفريقيا عقوبة مشروعة وابتلاءات مستحقة. أتقولون مقابل ذلك إن هذا الدين يعلن مساواة كل البشر أمام الله؟ أمام الله، نعم. بالأمس فقط كنت أقرأ في مجلة "إسبري" هذه السطور لمراسل من مداغاسكار :

"أنا متيقن مثلكم تماما بأن روح ملغاشي تعدل روح أبيض... تماما مثلما تساوي روح طفل أمام الله روح أبيه. إلا أنك، سيدي المدير، لن تقبل أن يسوق أولادك سيارتك إن كانت لك سيارة"

لا يمكننا التوفيق بلياقة أكثر من هذه بين المسيحية والاستعمار- يا لها من مغالطات. إن الأسود، بعد تعمق بسيط في ذاكرته بصفته مستعبدا قديما، يصرح بأن الألم من نصيب الرجال وليس من شأنه أن يكون أكثر استحقاقا. إن الأسود يرفض بقوة فظاعة الكساد المسيحي والتلذذ الكئيب والاستكانة المازوشية وكل الدعوات النازعة للخنوع. إنه يعيش الحدث السخيف للألم في صفائه وظلمه وفي مجانيته، ويكتشف ضمنه تلك الحقيقة المجهولة أو المخيفة من قبل المسيحية : الألم يحمل في نفسه

سبب رفضه، إذ الألم في كنهه رفض التألم، فهو وجه الظل للنفيية، وهو ينفتح للثورة والحرية. هكذا يؤرخ الأسود نفسه نظرا إلى أن الحدس بالألم يعطيه ماضيا جماعيا ويحدد له هدفا في المستقبل. قبيل هذا بقليل كان بروزا حاضرا نقيا من الأحداس العريقة في القدم وتظاهرة صافية للخصوبة الكونية والدائمة. وها هو الآن ينادي إخوته في اللون بلغة مخالفة تماما :

"أيها الأسود الحمال للثورة

أنت تعرف دروب العالم

منذ تركت نفسك تباع في غينيا.. "

ثم :

"لقد شاهدتكم خمسة قرون رافعي السلاح وقد علمتم الأجناس المستغلة حب الحرية..."

منذ زمن توجد ملحمة سوداء : بدءا بالعصر الذهبي لإفريقيا، ثم عهد التشتيت والأسر. تليه يقظة الوعي، الأزمنة البطولية والمظلمة للتمردات الكبيرة، لتوسان لوفارتير وللأبطال السود، ثم حدث إلغاء الاستعباد- أو "التحول الذي لا ينسى" حسبما قال سيزير- وفي الختام الكفاح من أجل التحرير النهائي.

"إنكم تنتظرون الاستدعاء المقبل

التجنيد الذي لا مفر منه،

لأن حربكم أنتم لم تعرف إلا فترات الهدنة

لأنه لا توجد أرض لم يسل فيها

دم لسانك، ويشتم فيها لونك،

إنكم تبتسمون أيها الفتيان السود

تغنون

ترقصون
تهدهدون الأجيال
التي تتقدم في كل الساعات
إلى جبهات الشغل والأسى
والتي ستتقدم غدا للهجوم على الحصون
نحو حصون المستقبل
لتكتب بكل اللغات
في الصفحات المنيرة لكل السماوات
الإعلان عن حقوقك المحتقرة
منذ خمسة قرون... "

إنه انعطاف عجيب وحاسم : لقد تحول الجنس إلى قابلية التأريخ- إذ الحاضر الأسود ينفجر ويتوقت والسودوية بماضيها ومستقبلها تدخل التأريخ الكوني، وليس هذا وضعا، بل ليس كذلك مسلكا وجوديا، إنه صيرورة. ولم يبق الإسهام الأسود في تطور البشرية نكهة أو فذاقا أو إيقاعا أو أصالة أو باقة أحداس بدائية، إنه مشروع مؤرخ وبناء صبور، بل مستقبل.لقد كان الأسود قبيل هذا يطالب باسم مزايا عرقية مكانته تحت الشمس. أما الآن فإنه يتخذ مهمته مطية لتأسيس حقه في الحياة. وهذه المهمة بالنسبة للأسود تأتيه تماما مثل الطبقة الكادحة في وضعيته التأريخية. ولأنه تألم أكثر من كل الآخرين من الاستغلال الرأسمالي فإنه اكتسب أكثر من كل الآخرين معنى الثورة وحب الحرية. وبما أنه الأكثر اضطهادا فإنه حتما يطالب بحرية الجميع حينما يسعى لتحرره الشخصي :

"أيها الرسول الأسود للأمل
أنت تعرف كل أغاني العالم
منذ أغاني ورشات النيل العريقة"

ولكن هل نستطيع بعد هذا وزيادة عليه أن نؤمن بالتجانس الداخلي للسودوية؟ وكيف هي؟ هي تارة براءة مفقودة لم توجد إلا في ماض بعيد، وتارة أخرى أمل لن يتحقق إلا في إطار المدينة المنتظرة. وتتقلص السودوية طورا في لحظة انصهار حلولي مع الطبيعة وتتمطط طورا آخر إلى حد التطابق مع التأريخ الكامل للبشرية. بل هي مرة سلوك وجودي ومرة أخرى المجموعة الموضوعية للتقاليد الإفريقية السوداء. هل نكتشفها من جديد؟ أم ننشئها ؟

ومهما يكن الأمر، فإنه يوجد سود "يتعاونون" في هذا الشأن. كما نرى سانغور في الملاحظات التي مهد بها لمؤلفات كل شاعر يحاول أن يميز بين درجات في السودوية. هل الذي يبشر إخوانه في اللون بالسودوية يطالبهم بأن يكونوا دائما أكثر سوادا، أم أنه بواسطة نوع من التحليل النفساني الشعري يكشف لهم حقيقة أمرهم ؟ وهل هي ضرورة أم حرية ؟ أم هل الأمر بالنسبة للأسود الأصيل أن تنبع سلوكاته من جوهره مثلما تأتي النتائج من مبدإ، أم هل الإنسان أسود كما يكون مخلص دين ما مؤمنا، أو بمعنى آخر في الخوف والارتعاد، وفي القلق وفي التوبيخ الدائم أن يكون الأسود دائما دون ما يصبو إليه ؟

هل هذا واقع مسلم أو قيمة ؟ موضوع حدس تجريبي أم مفهوم أخلاقي ؟ هل هي فتح للتأمل؟ أم التفكير يسممها ؟ ألا تكون أصيلة أبدا إلا في غير المتبصر والراهن؟ وهل هي تفسير منهجي للروح السوداء أم نموذج إفلاطوني يستطيع الإنسان مقاربته دائما دون أن يلحق به أبدا؟ وهل هي بالنسبة للسود الشيء المتفق عليه أكثر في العالم مثلما ينص على ذلك توجهنا كمهندسين ؟ أم هل السودوية تنزل على بعض نعمة وتصطفي مختاريها ؟ وسيكون الجواب بدون شك أن السودوية كل هذا في نفس الوقت وأمور أخرى كذلك. وأنا أبقى موافقا على هذا، إذ السودوية، مثل كل المفاهيم الأنتروبولوجية عبارة عن لمعان الوجود

ووجوب الوجود. فالسودوية تصنعك وأنت تصنعها : قسم وهيام في آن واحد. ولكن هناك ما هو أخطر من هذا مثلما قلنا آنفا، إذ الأسود يخلق لنفسه عنصرية مضادة للعنصرية. هو لا يرغب في السيطرة على العالم، إنه يريد إلغاء الفوارق العرقية مهما كان منبعها. ويعلن تضامنه مع المضطهدين مهما كان لونهم. وبالتالي فإن المفهوم الذاتي والوجودي والعرقي للسودوية ينتقل كما قال هيجل إلى المفهوم الموضوعي والإيجابي والصحيح للبوليتاريا (الطبقة الشغيلة أو الكادحة أو العاملة). ويقول سانغور إن "الأبيض" بالنسبة لسيزير يرمز إلى رأس المال مثلما يرمز الأسود إلى العمل. وإنه، من خلال الرجال ذوي البشرة السوداء من جنسه، يغني للطبقة الشغيلة العالمية. يسهل قوله هذا ولكن يصعب التفكير فيه. ومما لا ريب فيه أن أكثر الشعراء توهجا للدفاع عن السودوية هم في نفس الوقت مناضلون ماركسيون. وهذا لا يمنع أن يتقاطع مفهوم العرق مع مفهوم الطبقة : فهذه واقعية وخاصة، وتلك كونية ومجردة، وتنتمي إحداهما إلى الفهم والأخرى إلى التعقل كما سماهما جاسبيرس. فالأولى ناتجة عن توافق نفساني- بيولوجي والأخرى بناء منهجي أساسه التجربة- وبالفعل، فإن السودوية تبدو كالوقت الضعيف. ضمن تدرج جدلي حيث يكون التصريح النظري والعملي بتفوق الأبيض هو الدعوى، ويكون وضع السودوية كقيمة نقيضه هو وقت الإنكار. ولكن هذا الوقت الرافض ليس فيه كفاية ذاتية، والسود الذين ينهجون هذا النهج يعرفونه جيدا. يعرفون أنه يمهد للخلاصة بمعنى تحقيق إنسان في مجتمع بدون أجناس. وهكذا تهدف السودوية إلى القضاء على نفسها، إنها ممر وليست نتيجة، هي وسيلة وليست غاية نهائية. وفي نفس الوقت الذي يقبل فيه الأورفيون السود أوريديس بوة كبيرة، فإنهم يشعرون بأنها مغمى عليها بين أيديهم. وهناك قصيدة لجاك رومان، وهو شيوعي أسود، تقدم شهادة مؤثرة جدا حول هذا التعقد الجديد :

"إفريقيا، لقد حافظت على ذاكرتك إفرقيا

أنت في نفسي

مثل الشوكة في الجرح

مثل التميمة الحارسة وسط القرية

حوليني إلى حجارة لمقلاعك

وحولي فمي إلى شفتي جرحك

وحولي ركبتي إلى الأعمدة المحطمة لإذلالك،

ومع ذلك

لا أريد ان أكون إلا من جنسكم

أيها العمال والفلاحون من كل البلدان"

ما أكبر الحزن الذي يحفظ به وقتا آخر ما قرر التخلي عنه. وما أعز كبرياء الرجل التي سيخلع بها للرجال الآخرين كبرياء الأسود: فالذي يقول في نفس الوقت إن إفريقيا في نفسه "مثل الشوكة في الجرح" وإنه لا يريد أن يكون إلا من الجنس الكوني للمضطهدين، هذا لم يخرج بعد عن سلطة الوعي البائس. بعد خطوة فقط ستغيب السوداوية تماما: ما كان غليانا سلفيا وحتمية كونية :

"أهذا كله جو وامتداد وفضاء،

ينشئ العشيرة والقبيلة والأمة

والبشرة وجنس الآلهة،

تغايرنا الذي لا يرحم"

لكن الشاعر لا يستطيع أن يتخذ هذه العقلنة للمفهوم العرقي لحسابه الخاص: نلاحظ أنه يكتفي بالتساؤل، لأنه وراء إرادته للوحدة يتراءى ندم أليم. التمشي غريب: إن السود المستذلين والمظلومين يبحثون في أعماقهم للعثور على أخفى كرامتهم وعندما يجدون هذه الكرامة فإنها

تنكر نفسها. وبكرم عظيم يتخلون عن هذه الكرامة، مثلما تخلى فيلوكتاتات عن قوسه وسهامه لنيوبتولام. وهكذا يكتشف متمرد سيزير في أعماق قلبه سر ثوراته، إنه من جنس الملوك.

"...حقيقة، يوجد في نفسك شيء لم يستطع أبدا أن يستسلم : غضب ورغبة وأسى، ونفاذ صبر، وازدراء وعنف.... وهكذا فإن عروقك تجرف الذهب لا الوحل، والعزة لا العبودية. لقد كنت ملكا، ملكا في القدم".

إلا أن سيزير يرفض هذا الإغراء :

"هناك قانون أغطيه بسلسلة لا كسر فيها إلى غاية ملتقى النار التي تبخرني، وتطهرني وتحرقني مع منشوري من الذهب المندمج... سوف أموت، ويموت كلي كاملا".

ربما كان هذا العراء النهائي للإنسان هو الذي انتزع منه البهارج البيضاء التي كانت تحجب درعه الأسود والذي ينزع الآن ويرمي هذا الدرع نفسه. ربما كان هذا العراء غير الملون هو أحسن رمز للسودوية : لأن السودوية ليست وضعية إنها تجاوز محض لنفسها، إنها حب. فإنها تجد نفسها حين تتخلى عن نفسها. وهي تفوز حين تقبل خسارتها، يمكن أن يطلب من الرجل الملون ومنه وحده أن يتنازل عن عزة لونه، إنه السائر فوق قمة بين الخصوصية الماضية التي صعدها والكونية المقبلة التي تعلن غروب سودويته، إنه الذي يعيش إلى أقصى حد خصوصيته ليجد فيها فجر الكونية. وربما كان العامل الأبيض كذلك يعي طبقته لينكرها لأنه يريد قدوم مجتمع بدون طبقات، ولكن، مرة أخرى يبقى تحديد الطبقة موضوعيا، إذ تكتفي بتلخيص شروط استلابها، بيد أن الأسود يجد جنسه في عمق قلبه وعليه بالتالي انتزاع قلبه. وهكذا تأتي السودوية جدلية. ليست فقط ولا غير ذلك ازدهار أحداس وراثية ارتدادية. إنها تصور تجاوز وضعية يحددها الوعي الحر. تلك الأساطير المؤلمة وذلك الإمتلاء من الأمل، عبارة عن السودوية وليدة الشر والحاملة بالخير القادم، والحية

مثل المرأة التي تولد لتموت والتي لا يغادرها الإحساس بموتها حتى في أغنى الأوقات من حياتها. إنه هدوء غير ثابت واستقرار قابل للانفجار وعزة تتخلى عن نفسها ومطلق يعرف أنه عابر. لأن السودوية، في الوقت الذي تعلن فيه عن ولادتها واحتضارها، تبقى السلوك الوجودي الذي اختاره رجال أحرار والمعيش إطلاقا حتى الثمالة. وبما أن السودوية هي ذلك التوتر بين ماض ارتدادي لا يدخله الأسود كلية ومستقبل ستسلم فيه موقعها إلى قيم جديدة فإنها تتباهى بجمال مأساوي لا يمكن التعبير عنه إلا شعرا، لأنها الوحدة الحية والجدلية لكل هذه المتناقضات، ولأنها عقدة لا يمكن تحليلها، وليس هناك إلا الوحدة المتعددة لغناء ما تستطيع إبرازها، وهذا الجمال الشعري الساطع الذي يسميه يروطون "المتفجر- الثابت". ولأن أي محاولة لوضع مفاهيم لمختلف المظاهر ستؤدي حتما إلى إبراز نسبيتها والواقع أن وعيا ملكيا يحياها مطلقا وأن القصيدة شيء مطلق فالشعر وحده يساعدنا على إثبات المظهر اللامشروط لهذا السلوك. ولأن السودوية ذاتية تندمج في الهدف، فإنه يتحتم عليها أن تتجسم في قصيدة، وبعبارة أخرى في ذاتية-موضوع. ولأنها نموذج مثالي وقيمة فستجد أشف رمز لها في القيم الجمالية، ولأنها نداء وموهبة فلن تستطيع أن تسمع نداءها وتهب نفسها إلا بواسطة عمل فني يكون نداء لحرية المتفرج وكرما مطلقا. السودوية هي محتوى القصيدة وهي القصيدة كواقع من العالم مبهم ومفتوح، لا يمكن قراءته وهو إيحائي، إنه الشاعر نفسه. ولابد من الذهاب بعيدا جدا، لأن السودوة هي انتصار للنرجسية وانتحار لنرسيس، وضغط للروح وراء الثقافة، للكلمات ولكل الأحداث النفسية، هي الليل المنير لانعدام العلم، واختيار حر لغير الممكن ولما يسميه باطاي "التعذيب"، واختيار حدسي للعالم ولرفض العالم باسم "قانون القلب" وطلب مزدوج تناقضي، وتراجع مطالب، وتوسع للكرم. فالسودوية في جوهرها شعر ولمرة على الأقل يخرج المشروع الثوري الأكثر أصالة والشعر الأكثر صفاء من منبع واحد.

فما الذي سيحصل إذا التضحية يوما نفذ ت. وماذا سيحصل إذا الأسود أثناء تعريته من سودويته لصالح لم يرد أن يعتبر إلا كعامل كادح؟ وماذا سيحصل إذا لم يقبل تعريفا لنفسه إلا بواسطة حالته الموضوعية؟ وإذا فرض على نفسه محاربة الرأسمالية البيضاء واستيعاب التقنيات البيضاء؟ فهل سينفذ منبع الشعر؟ أو سيلون النهر الأسود الكبير البحر الذي يصب فيه؟ المهم أن لكل عصر شعره، وفي كل عهد تختار الظروف التاريخية أمة وجنسا وطبقة لاسترجاع المشعل وذلك بإنشاء أوضاع لا يمكنها التعبير ولا التجاوز إلا شعرا. وأحيانا تتوافق الوثبة الشعرية مع الوثبة الثورية، وأحيانا أخرى تتباينان. ولنحَيِّ اليوم الحظ التأريخي الذي سيتيح للسود. "أن يصرخوا بتصلب لا مثيل له الصرخة السوداء العظمى التي ستنتزع قواعد العالم".

ثانيـــا

تقديـــــم
"صـورة المستعمر"

لألبير مَامّي



إن ساكن الجنوب هو المؤهل الوحيد للكلام عن الاستعباد، لأنّه يعرف الأسود. وأهل الشمال المتزمتون والمجردون لا يعرفون إلا الرجل الذي هو عبارة عن كيان. وهذا التفكير الجميل لا زال قائما : في بوستون وفي طيات صحافة نوفال أورليون، وكذلك في "الجزائر الفرنسية"، ما دمنا دائما نُعْتَبر شماليين عند أناس، تكرر الصحف هناك أن المستعمر هو وحده المؤهل للكلام عن المستعمرات. أما نحن سكان "الوطن الأمّ" فلا نملك تجربته، إمّا أن نرى الأرض الإفريقية المحترقة بعينيه أو لا نرى شيئا على الإطلاق.

والذين يزعجهم هذا التهديد أنصحهم بقراءة كتاب "صورة المستعمَر" وقبله "صورة المستعمِر". وفي هذه المرّة، التجربة تقابل التجربة، والمؤلف، وهو تونسي، قصّ في كتاب "تِمثَال الملح" شبابه المرّ. ما هو وضعه بالضبط؟ مستعمِر أم مستعمَر؟ وربّما يجيب المؤلف : لا مستعمِر ولا مستعمَر، وربّما تقولون هو مستعمِر ومستعمَر. ومع التعمّق يبدو الأمر واحدًا. إنّه ينتسب إلى مجموعة محليّة غير مسلمة "مفضّلة إلى حدّ ما بالنسبة للجماهير المستعمَرة و... مرفوضة... من قبل التجمّع الاستعماري" الذي لا "يُثَبّط تماما" جهودهم من أجل الاندماج في المجتمع الأوربي. إنهم متحدون بالتضامن مع شبه الطبقة الشغيلة ومختلفون عنها ببعض الامتيازات الضئيلة، إنهم يعيشون ضيقا دائما. لقد جرّب مامّي هذا التضامن المزدوج وهذا الرفض المزدوج : حركة التعارض بين المعمّرين المستعمرين، والمعمّرين الرافضين تجاه المعمّرين المتقبلين". وقد فهم مامّي فهما جيدا هذا الوضع لأنه أحسه في تناقضه الخاص. ويشرح جيّدا في كتابه تلك التمزقات الروحية، عبارة عن استنباطات صرفة

للنزاعات الاجتماعية والتي تحول دون العمل. ولكن الذي يتألم لهذه النزاعات، إن هو وَعَى نفسه وعرف تواطؤاته ومغرياته ونفيه، يستطيع أن ينير الآخرين عندما يتكلم عن نفسه : إن هذه "القوة المستهانة في المواجهة" أي هذا المشكوك في أمره لا يمثل أحدا، إلاّ أنه ما دام هو كل الأطراف في نفس الوقت، فسيكون أفضل شاهد.

ولكن كتاب مامّي لا يروي، وإذا كان يتغذّى بالذكريات، فقد استوعبها كلّها، إنما الأمر هو عرض تجربة. وأمام الاغتصاب الاستعماري العنصري والأمة المستقبلة التي سيؤسسها المستعمَرون وحيث "يشك أن لن يجد مكانة لنفسه" يحاول أن يحيي خصوصيته بتجاوزها نحو الشمولية، وليس نحو الرجل الذي لم يوجد بعد وإنما نحو رشد حازم يفرض نفسَه على الجميع، وهذا الكتاب البسيط والواضح يرتب مع "الهندسات الملهِفة" لأن موضوعيته هادئة، بل هي الألم والغضب المنسي.

وربّما دفعنا هذا بدون شك أن نؤاخذه بظاهر من المثالية : وبالفعل قد قيل كل شيء ولكن سنؤاخذه شيئا ما بالنظام المتبع. ربّما كان من الأحسن إبراز المستعمر وضحيّته يخنقهُمَا معًا الجهاز الاستعماري، تلك الآلة الثقيلة التي تأسست في نهاية الإمبراطورية الثانية، وبعد أن سرّت تمامًا المستعمِرين إذا هي تنقلب عليهم وربّما تسحقهم. وفعلا فإن العنصرية جزء من المنظومة إذ المستعمرة تبيع بثمن بخس المواد الغذائية والمنتوجات الخام، وتشتري بأثمان باهظة من "الوطن الأم" منتوجات مصنّعة. ولا تكون هذه التجارة مفيدة بالنسبة للجانبين إلا إذا اشتغل العامل المحلي بدون مقابل أو مثل هذا. وشبه الطبقة الشغيلة الزراعية هذه لا تستطيع أن تعتمد على تحالف الأوربيين الأقل امتيازا، إذ الكل يعيش على عرق المستعمَر بما في ذلك "المعمّرون الصغار" الذين يستغلهم كبار الملاكين ورَغم ذلك يبقى هؤلاء من المتميزين إذا قيسوا بالجزائريين حيث يفوق الدخل المتوسط لفرنسي الجزائر عشر مرّات دخل المسلم. من هنا يبدأ التوتّر.

وإذا أريد أن تنزل الأجور وقيمة الحياة إلى أدنى دركة لابدّ وأن يقوم تنافس كبير بين العمال المحليّين، وبهذا ترتفع نسبة الولادة. وبما أن الاغتصاب الاستعماري يقلل موارد البلاد ومع نفس الأجور فإن مستوى معيشة المسلم في انحدار مستمرّ، والسكان يعيشون في حالة سوء تغذية دائمة.

لقد تم الغزو بالعنف، والاستغلال المتزايد والاضطهاد يقتضيان دوام العنف أي حضور الجيش. ربّما لا يكون في الأمر تناقض لو كان الرعب يعم الأرض كلها. ولكن المعمّر يتمتّع هناك في "الوطن الأم" بحقوق ديمقراطية يرفضها النظام الاستعماري بالنسبة للمستعمَرين : النظام هو المتسبب في تكاثر السكان لإحباط كلفة اليد العاملة وهو نفسه الذي يمنع كذلك اندماج السكان المحليين : ولو كان لديهم حق التصويت لفجّر تفوقهم العددي كلّ شيء في الحين. والاستعمار يرفض حقوق الإنسان لناس قهرهم بالعنف، ويبقيهم بالقوة رَهْنَ البؤس والجهل إذًا في وضع "بشرية متدنّية" كما يقولها ماركس والعنصرية مسجّلة في الأحداث ذاتها وفي المؤسسات وفي طبيعة المبادلات والإنتاج فالقوانين الأساسيّة السياسية منها والاجتماعية يُدَعِّمُ بعضها البعض ما دام الرجل المحلي إنسانا مُتَدنّيا أو دون الإنسان، والإعلان عن حقوق الإنسان لا يَعْنيه. بل بالعكس ما دام لا حقوق له فإنه يترك بدون أي حماية أمام قوى الطبيعة اللا إنسانية وأمام قانون الاقتصاد الحديدي. فالعنصرية حاضرة ضمنيا يدعّمها العمل الاستعماري ويَضَعْها في كل دقيقة الجهاز الاستعماري وتساعدها علاقات الإنتاج التي تحدّد نوعين من الأشخاص : إذ الامتياز والإنسانية يمثلان شيئا واحدا عند الأول، فهو رجل بِتَمتّعه الحر بحقوقه. أما بالنسبة لثانيهما فغياب الحقّ يثبت بؤسه ومجاعته الدائمة وجهله وباختصار "إنسانيته المتدنّية". لقد كنت دائما أعتقد أن الأفكار ترتسم في الأشياء وأنها موجودة مسبّقا في الإنسان عندما يوقظها ويعبّر عنها ليشرح حاله. إن "روح المحافظة" لدى المعمّر و"عنصريته" وعلاقاته

الغامضة مع "الوطن الأم" كل هذا مُعْطى مسبّقا قبل أن يستعيده ضمن "عقدة نيرون".

ولربّما أجابني مامّي بدون ريب أنه لا يقول عكس هذا : وأنا أعلم[1] هذا، وفي النهاية ربّما كان على حق، فعندما يعرض أفكاره حسب تسلسل الاكتشاف، وبعبارة أخرى انطلاقا من النيات البشرية والعلاقات المعيشة فهو يضمن أصالة تجربته. لقد تألم أوّلا في علاقاته مع الآخرين ومع نفسه. لقد وقف على البنية الموضوعية حينما عمّق التناقض الذي كان يمزقه. ويقدم لنا أفكاره كما هي، خشنة وما زالت متأثّرة بذاتيته.

ولكن لنترك هذه المشاجرات جانبا. فالكتاب يثبت بعض الحقائق القوية : أولاها أنه لا يوجد معمّر جيد وآخر قبيح، بل هناك استعماريون فقط. وضمن هؤلاء يرفض البعض حقيقتهم الموضوعية. فنظرا لدفعهم من قبل الجهاز الاستعماري تجدهم يقومون كل يوم بأعمال يستنكرونها في أحلامهم وكل أفْعالهم تساهم في الإبقاء على الاضطهاد. ولن يغيّروا شيئا، ولن يقدموا خدمة لأي إنسان وسيجدون راحتهم المعنوية في الضيق، هذا هو الأمر كلّه.

أمّا الآخرون - وهم يمثلون الأغلبية - فإنهم يبدؤون أو ينتهون بقبول وضعيتهم.

وقد وصف مامّي بروعة فائقة تتابع التمشيات التي توصلهم إلى "التحلل الذاتي من الذنوب". ومذهب المحافظة يؤدي إلى إنتقاء الرّديء. كيف يمكن هذه النخبة من المغتصبين الواعين برداءتهم أن تؤسس امتيازاتها؟ بوسيلة واحدة إذلال المستعمَر للتمكن من الاستعلاء، ورفض صفة الإنسان للسكان المحليين والنظر إلى هذه المعاملات كحرمانات بسيطة. وسوف يكون الأمر هينا للغاية لأن النظام يحرمهم كل شيء. والتعامل الاستعماري قد نقش

1) ألم يكتب إن الوضعية الاستعمارية تصنع مستعمرين كما تصنع مستعمَرين ؟ وكل الخلاف بيننا ربّما يتبع من رؤيته وضعية ما أراه منظومة.

الفكرة الاستعمارية في الأشياء نفسها. وبالتالي فإن حركة الأشياء هي التي تعيّن في نفس الوقت المعمّر والمستعمَر. وهكذا يبرئ الاضطهاد نفسه. والمضطهدون ينتجون ويصونون بقوة شرورهم التي تجعل في أعينهم المضطهد يشبه شيئا فشيئا الوضع الذي كان يتوجّب أن يكون عليه لاستحقاق مصيره هذا. ولن يتمكّن المستعمر من التحلّل من ذنوبه إلا إذا واصل بانتظام "نزع صفة الإنسانية" عن المستعمَر، أو بتعبير آخر إلا إذا اندمج كل يوم أكثر في الجهاز الاستعماري. إن الرعب والاستغلال ينتزعان صفة الإنسانية، والمستغل يعتمد على انتزاع صفة الإنسانية ليرخص لنفسه الزيادة من الاستغلال. إن الآلة تدور حول نفسها ويستحيل التمييز بين الفكرة والعمل الاعتيادي وبين هذا والضرورة الموضوعية. وهذه الفترات الاستعمارية يتسبّب بعضها في البعض أحيانًا وأحيانا أخرى تختلط. والاضطهاد هو أساسا كراهية المضطهِد للمضطهَد. ويبقى الحد الوحيد لعملية الإبادة هذه هو الاستعمار نفسه. وفي هذا المستوى يُلاقي المستعمِر تناقضه الحقيقي: "بالمستعمَر ينتهي الاستعمار والمستعمِر معه". لن تبقى هناك شبه طبقة شغيلة ولا استغلال. وهكذا نعود إلى الأشكال العادية للاستغلال الرأسمالي وتعادل الأجور والأسعار تلك الموجودة في "الوطن الأم": وهذا معناه الإفلاس. والنظام يريد في نفس الوقت موت ضحاياه وتكاثرها، وكل تغيير سيَدُقّ نهايته: إمّا أن يدمج أو يقتل السكان المحليين ولن يوقف هذا تَصاعد كلفة اليد العاملة. وهذه الآلة الثقيلة تبقي بين الحياة والممات ودائما أقرب من الممات؟ الذين اضطرّوا لتحريكها، هناك نزعة عقائدية محجّرة تثابر لاعتبار البشر حيوانات ناطقة، عبثا تصدر أوامرها ولو كانت أقساها وأكثرها شتما، فلا بدّ من الشروع في الاعتراف بهؤلاء البشر. وبما أنه لا يمكن مراقبتهم باستمرار فلا بدّ من الوصول إلى وضع الثقة فيهم. وليس لأحد أن يعامل إنسانًا "معاملة كلب" إلا إذا اعتبره بادئ ذي بدء إنسانا.

واستحالة نزع صفة الإنسانية عن المظطهَد تتحول وتؤدّي إلى اختلال المضطهِد: إذ أنه، هو نفسه الذي يستعيد بأدنى حركة يقوم بها الإنسانية

التي يريد تدميرها، وبما أنه ينكر هذه الإنسانية عند الآخرين فإنه ينظر إليها في كل مكان كقوة عدوة. وللفرار من هذه القوة يتحتم عليه أن يتحول إلى معدن، وأن يتدعّم بالصلابة الكامدة التي تتصف بها كثافة الصّخر، وباختصار لم يبق له بدَوْره إلا انتزاع صفة البشر من نفسه.

يوجد تماثل بقسوة عالية يربط المستعمِر بالمستعمَر كمنتوج ومصير. وقد بيّن مامّي هذا التماثل بقوّة. إنّنا نكتشف معه المنظومة الاستعمارية كشكل متحرك وُلِدَ في منتصف القرن الماضي وسينجب بنفسه إبادة نفسه. ونلاحظ من زمان أن هذا الوضع يكلّف "الوطن الأم" أكثر مما يقدّمه له. ففرنسا ترزح تحت ثقل الجزائر ونعرف منذ الآن بأننا سنتخلى عن الحرب بلا انتصار ولا هزيمة عندما نفتقر إلى ما نموّل به الحرب. ولكن نرى قبل كل شيء أن صلابة الجهاز الآلية هي التي تتولى تعطيله: فالبنيات الاجتماعية القديمة تنسحق والسكان الأصليون "يتذرّرون". ولكن المجتمع الاستعماري لا يستطيع إدماجهم دون القضاء على نفسه، ويجب بالتالي على هؤلاء أن يسترجعوا وحدتهم ضد هذا المجتمع...

وهؤلاء المفصولون سيطالبون بفصلهم باسم الشخصية الوطنية، إذ الاستعمار هو الذي ينشئ وطنية المستعمَرين. وهؤلاء يفرض عليهم البقاء في وضعية مثل وضعية الحيوان ولا يعطى لهم أي حق، ولو كان حق الحياة، وظروفهم تتأزم يوما بعد يوم. وحينما لم يبق لدى شعب ما أي حيلة إلا اختيار كيفية مماته، وحينما لم يتلق من مضطَهديه إلا هوية واحدة وهي اليأس، لم يبق لديه ما يضيّعه. وهكذا تنقلب مصيبته شجاعة. وهذا الرفض الدائم الذي يواجهه به الاستعمار سيحوّله إلى رفض مطلق للاستعمار. فسرّ الطبقة الشغيلة كما قال ماركس في أحد الأيام يكمن في أنه يحمل في طياته تدمير المجتمع البرجوازي. ولا بدّ من الاعتراف لمامي بأنه ذكرنا بأن المستعمَر له سِرّه كذلك وبأننا نشاهد احتضار الاستعمار الشنيع.

ثالثــا

انتصـــــــــار

تقديـم: لـ" السـؤال"

لهانري علاق

في سنة 1943 وفي شارع لوريستون كان فرنسيون يصرخون من الإزعاج والألم، وكانت فرنسا كلها تسمعهم، ولم تكن نهاية الحرب أكيدة وكنا نرفض التفكير في المستقبل، وكان هناك شيء وحيد يبدو في أعيننا مستحيلا وهو استحالة تصريخ رجال باسمِنا.

والمستحيل ليس فرنسيا، ذلك أنه في سنة 1958 بالجزائر العاصمة كان التعذيب يسلط بنظام وانتظام، والعالم كله يعلم ذلك. من السيد لاكوست إلى مزارعي لافيرون، لا أحد يتلكم عن التعذيب إلا نادرًا إذ كانت هناك بعض الكلمات تنسل في الصمت. ولم تكن فرنسا أقل بكما وقت احتلالها، وربما تشفع لها أنها كانت مكمّمة. أما في الخارج فقد جاءت الخلاصة : لم نتوقف عن الانحطاط، وذلك منذ 1939 حسب البعض ومنذ 1918 حسب البعض الآخر. وفي هذا الحكم تسرّع، لأنني لا أؤمن بانحطاط شعب بهذه السهولة. إنما أؤمن بركوده وبذهوله. وأثناء الحرب عندما كانت الإذاعة الانجليزية أو الصحافة السرية تكَلّمَنَا عن أورَادُورْ كنا ننظر إلى العساكر الألمان وهم يتجوّلون في الشوارع لا تظهر عليهم علامة الإيذاء، وكنا نقول في أنفسنا أحيانا : "إنهم مع ذلك رجال يشبهوننا. فكيف يمكنهم أن يفعلوا ما يفعلون؟" وكنا نفتخر لأننا لم نكن نفهم.

واليوم نعلم أنه لا يوجد ما يفهم :

لقد وقع كل شيء تدريجيا ولا شعوريا وتخلّيات لا محسوسة، ولكن عندما رفعنا رأسنا رأينا في المرآة وجها غريبا وبغيضا : إنه وجهُنا.

ولقد اكتشف الفرنسيون مذهولين هذه البداهة الرهيبة : إن لم يوجد ما يقي أمّة ما شر نفسها. لا ماضيها ولا أماناتها ولا قوانينها نفسها إذا كانت خمسة عشرة عاما كافية لتحويل الضحايا إلى جلادين، وإذا فإن الصدفة وحدها هي التي تقرّر، وحسب الصدفة فإنه يمكن أيّا كان وفي أي وقت أن يتحول إلى ضحية أو جلاّد.

طوبى لمن ماتوا قبل أن يتساءلوا أبدًا : "هل سأقرّ إذا انتزعوا أظفاري؟" وطوبى أكثر لمن لم يرغموا بعد خروجهم من الطفولة مباشرة على التساؤل الآخر : لو انتزع أصدقائي وإخواني في السلاح أو قادتي أظفار عدوّ أمامي، فماذا أفعل؟"

وماذا يعرف الشبان عن أنفسهم إذا ما سدّت الظروف المنافذ أمامهم؟ إنهم يدركون أن القرارات التي يتخذونها هنا ستبدو لهم مجرّدة وفارغة أمام الواقع وأن وضعية غير متوقعة سترغمهم على إعادة النظر في أنفسهم كليّة، وسوف يتحتّم عليهم اتخاذ قرار هناك بمفردهم لفرنسا ولأنفسهم. إنهم ذاهبون، وآخرون راجعون وقد عرفوا عجزهم وسيحتفظ أغلبهم بصمت حقود. ويولد الخوف : الخوف من الآخرين والخوف من النفس، وسيطغى الخوف على كل الأوساط.

وهكذا لا تكوّن الضحية مع الجلاد إلا صورة واحدة : تلك هي صورتنا. وفعلا في الحالات القصوى لا يتبقى لمن أراد رفض أحد الدورين إلا المطالبة بالدور الآخر.

وهذا الخيار لا يفرض نفسه إلى حدّ الآن على فرنسي فرنسا. ولكن هذا التردد يضايقنا، فصرنا بسببه "الجرح والسكين" : وأصبح خوف كوننا جرحا وفظاعة كوننا سكّينًا يأتمران ويتقويان بالتبادل. وهذا يحيي الذكريات، إذ قبل خمس عشرة سنة كان أحسن المقاومين (في فرنسا) يخشون الألم أكثر من التألّم، حيث كانوا يقولون إن الضحية حينما تصمت فإنها تحافظ على كل شيء وحينما تتكلم فليس من حق أحد أن يبدي رأيه فيها حتى الذين لم يتكلموا، لكن الضحية تتزاوج مع جلادها فهي

امرأته وهذان الزوجان المتعانقان يهويان في ليل الحقارة وليل الحقارة قد عاد ؛ وإنه يعود في الأبيار في كل ليلة، أمّا في فرنسا فإنه سخام قلوبنا، وبالضبط، فإنّه دعاية مهموسة تجبرنا بأن "كل الناس يتكلمون" ؛ وهكذا يبرر جهل البشر كل التعذيبات. وما دام كل واحد منا خائنا بالقوة فإن الجلاد الموجود داخل كل واحد منا سيكون مخطئا إن هو أحسّ بتضايق. ولأن عظمة فرنسا تفرض هذا فإن أصواتا لطيفة تشرح لنا هذا كل يوم، وأنه على كل وطني حقيقي أن يكون صاحب ضمير جيّد، والانهزامي وحده يفسد ضميره.وهكذا تتحول الدهشة يأسا. وإذا كانت الوطنية تدفعنا حتما إلى الحقارة، وإذا لم يوجد أيّ حاجز في أي مكان ليمنع في أي وقت لا الأمم ولا البشرية جمعاء من الانحدار نحو اللا إنساني فلماذا نحاول جهدنا بالفعل أن نصير أو نبْقى رجالا ؛ فاللاإنساني هو حقيقتنا. وإذا لم يكن أي شيء غير هذا صحيحا، وإذا كان لزَاما عَلينا أن نرهب أو أن نموت رعبا، فلماذا نكلف أنفسنا عناء الحياة والبقاء وطنيّين؟

وقد بَثّت هذه الأفكار في أذهاننا غصبا عنا. وهذه الأفكار المبهمة والخاطئة تتولّد كلها ؛ من هذا المبدإ نفسه ؛ الإنسان لا إنساني وتهدف كلها إلى إقناعنا بضعفنا. وتحقق أهدافنا ما دمنا لم نواجهها. ولا بدّ أن يفهم هذا في الخارج ؛ ليس صَمتنا دليلا على الرضى. بل هو ناتج عن كوابيس مثارة ومتّابعة وموجهة. كنت أعرف هذا من قبل، ولكنني كنت انتظر منذ مدة طويلة بينة حاسمة.

وهاك البينة.

منذ خمسة عشر يوما ظهر في منشورات مينوي كتاب بعنوان "السؤال". والمؤلف هانري علاق المسجون إلى يومنا هذا في سجن بالجزائر يقص بدون تعليق غير مجد وبدقة رائعة "الاستنطاقات" التي خضع لها. وقد "عالجه" الجلادون كما سبق لهم أن عاهدوه به ؛ هاتف الميدان والتعذيب بالماء. مثلما ما وقع في عهد برين قبلي، ولكن مع زيادة التحسينات

التقنية التي تفرض نَفْسها في وقتنا، والتعذيب بالنار وبالتعطيش، الخ. إنه كتاب ينصح ذوو القلوب المرهفة عدم مطالعته. والحال أن الطبعة الأولى بعشرين ألف كتاب قد نفذت. ورغم طبعة ثانية أنجزت بسرعة لا يمكن تلبية الطلب : إذا يبيع بعض الكتبيين من خمسين إلى مائة نسخة يوميا.

والذين كانوا يجرؤون على تقديم الشهادة هم الذين استدعوا ثانية إلى الجيش وهم قسّيسون أساسا. لقد عايشوا القائمين بالتعذيب وهم إخوانهم وإخواننا.

أما عن الضحايا فلا يعرفون في أغلب الأحيان إلا الصيحات والجراح والآلام. وكانوا يعرضون علينا ساديّين محبّين للتعذيب منحنين على أشلاء لحم. وما كان الفرق بيننا وبين هؤلاء الساديين؟ لا شيء، ما دمنا صامتين : كان استنكارنا يبدو صادقا في أعيننا، ولكن هل كنا نستطيع الاحتفاظ باستنكارنا لو كنا عشنا هناك؟ وهلا استحال استنكارنا اشمئزازا كونيا وخنوعا كئيبا؟ أمّا في ما يخصني فكان من واجبي أن أقرأ وكنت أنشر أحيانا، وكنت أكره تلك القصص التي كانت تورّطنا بدون شفقة والتي لم تكن نترك لنا أي أمل.

وكل شيء يتغيّر مع "السؤال" : علاق يجنّبنا اليأس والخجل لأنه ضحية وتغلّب على التعذيب. وهذا الانقلاب لا يخلو من ظرف مريع. لقد عذبوه وبالغوا في تعذيبه باسمنا، ونحن نسترجع بسببه شيئا من عزّتنا : إذ نحن فخورون أن يكون فرنسيا. وإن القراء يتقمصونه بولع كبير، ويرافقونه إلى أقصى الآلام، فهم يصمدون معه منفردين وعراة. فهل يمكنهم وهل يمكننا أن نصمد حقيقة؟ هذا أمر آخر. المهم هو أن الضحية تحررنا عندما تساعدنا على أن نكتشف كما اكتشفت بنفسها بأننا قادرون ويجب علينا أن نتحمّل كل شيء.

لقد تُسْلب عقولنا أمام الهاوية اللا إنسانية ولكن يكفي أن يوجد رجل واحد صُلب وعنيد ومصرّ على القيام بمهنته كإنسان لينتزعنا من دوختنا. "السؤال" ليس لا إنسانيا، إنها بكل بساطة جريمة دنيئة وسافلة نفذها

رجال ضد رجال. وفي قدرة الرجال الآخرين ومن واجبهم قمعها. اللا إنساني لا يوجد في أي مكان سوى في الكوابيس التي يلدها الخوف. وفي الحقيقة، تكون الشجاعة الهادئة والتواضع وصفاء الذهن لدى الضحية هي السبب في إيقاضنا لتحررنا من الأوهام. لقد انتزع علاق التعذيب من الليل الذي يخفيه. فلنتقدم لرؤية التعذيب في واضحة النهار هؤلاء الجلادون أولا، ما يمكن أن يكونوا؟

ساديون؟ كبار ملائكة مغضبون؟ أرباب الحرب ذَوُو النزوات المخيفة؟ وإذا كان يجب تصديقهم فهم كل هذا مختلطا. ولكن علاق لا يصدقهم في الحقيقة. وما يبرز من المقاصد التي يرويها أنهم يودّون لو يقتنعون ويقنعون الضحية بأنهم يتمتعون بالسيادة الكاملة: فهم تارة رجال سامون يتحكّمون في رجال وتارة أخرى رجال أسداء وأقوياء كلّفوا بترويض أفحش حيوان وأضراه وأدناه، ألا وهو الحيوان البشري. ويدرك أنهم لا يُمْعنون النظر في القضية إذ المهم أن يشعروا السجين أنه ليس من جنسهم: فهم يعرّونه ويقيدونه ويستهزئون به: وجنود يذهبون ويعودون بلا مبالاة يراد منها الترعيب.

ولكن علاق، رغم كونه عريانا ومرتجفا بردا ومربوطا بخشبة لا زالت سوداء ولزجة بالتقيؤات القديمة، يعيد كل هذه المكايد إلى حقيقتها الحقيرة: إنها تمثيلية هزلية يلعب أدوارها أغبياء. إنها مهزلة في ذلك العنف الفاشي بكلامهم والقسم بالإقدام على "تفجير الجمهورية". إنها مهزلة في سلوك "المرافق العسكري للجنرال م" الذي يتنهي بهذه الكلمات: "لم يبق لكم إلا أن تنتحروا". إنها مهازل سخيفة ومتصلبة تتكرر كل ليلة دون اقتناع لكل سجين وتتوقف بسرعة لقلة الوقت، ذلك لأن هؤلاء العمال المُرْعِبين مثقلون بالأشغال... إنهم مرهقون إذ السجناء ينتظرون في صف طويل أمام خشبة التعذيب، ولا بدّ من التقييد ومن الفك والتجوّل بالضحايا من غرفة تعذيب إلى أخرى. وإذا نظرنا بعيني علاق إلى هذه الخلية القذرة، لاحظنا أن المعذَّبينَ تراكم عليهم ما يفعلون. وقد يحدث

لهم بالطبع أن يتظاهروا بالهدوء وأن يشربوا البيرة بكل ارتياح فوق جسم كثر تعذيبه وفجأة يقفزون مرّة واحدة على أقدامهم ويجرون في كل الاتجاهات ويحلفون ويصيحون من الغيظ. إنهم كثيرو القلق يمكن أن يكونوا ضحايا جيّدين، إذ يشرعون في الإقرار لأول هزّة.

إنهم شريرون وهائجون من الغضب، وهذا بالتأكيد وما هم بساديّين مطلقا لأنهم مستعجلون جدّا. وهذا الوضع هو سبب نجاتهم، لأنهم واقفون بهذه السرعة المكتسبة، إذ عليهم أن يجروا باستمرار أو أن ينهاروا.

وهم مع ذلك يحبّون العمل المتقن، وإذا اقتضت الضرورة فإنهم يندفعون مع ضميرهم المهني إلى القتل. وهذا الذي يلفت الانتباه في قصة علاق لأننا نحسّ من وراء هؤلاء الجرّاحين المذعورين بصلابة تفوقهم، بل تفوق قادتهم أنفسهم.

لو كانت هذه الجرائم أعمال كمشة من المجانين لكنا محظوظين، بل التعذيب هو الذي يلد في الحقيقة الجلادين. وعلى كل حال لم يتطوّع هؤلاء الجنود في فيلق نخبة متخصص في زيادة تعذيب العدوّ المنهزم.

لقد وصف لنا علاق في سطور الذين عرفهم وهذا كاف لتحديد مراحل التحوّل.

معهم أصغرهم الذين يتمتمون عاجزين : "هذا مرعب" عندما يضيئ مصباحهم الجيبيّ الكهربائي ضحية معذّبة، ويليهم مساعدو الجلادين الذين لم يباشروا هذه الأعمال : إنهم يُسَاندون ويحملون المساجين، بعض أولئك متصلبون وآخرون دُون ذلك، ولكنهم كلهم مأخوذون في شرك الآلة ولم يعد ممكنا غدرهم.

يوجد ضمنهم ذلك الأشقر من الشمال، "صاحب الوجه المؤنس الفائق الذي يستطيع أن يتكلم عن جلسات التعذيب المسلّطة على علاق كأنه يتحدث عن مقابلة رياضية قد يتذكّرها والذي يقدر على تهنئته بدون تضايق كما قد يفعل ذلك مع بطل في سباق الدراجات"...

وقد رآه علاق أياما بعد ذلك "محتقنا قد شوّه وجهه الحقد وهو يعذب مسلما في السّلّم"... ثم الاختصاصيون المتصلبّون الذين يقومون بكل العمل والذين يتلذّذون برجفات معذّب بالكهرباء والذين لا يتحملون سماع صيحاته، ثم المخبولون الذين يدورون حول أنفسهم دوران الورقة الذابلة في زوبعة عنفهم ذاته.

ولا يوجد واحد من هؤلاء الرجال بنفسه فقط ولن يبقى أحد على حاله : إنهم يمثلون أزمنة تحوّل لا ينثني. والفرق الوحيد بين الخيّرين والشريرين أن الأولين جدد والآخرين قُدامى. وسيذهب الكل وإذا استمرت الحرب سيخلفهم آخرون : شقر من الشمال وصمر صغار من الجنوب، وسيتبعون نفس التمهين وسيعرفون نفس العنف مع نفس الحالة العصبية.

ولا شأن للأشخاص في هذه القضية، إذ يوجد نوع من الكراهية الهائمة والمندسة وهي كراهية جذرية للإنسان تتسلط في نفس الوقت على الجلادين والضحايا لتخذلهم معا بتسليط بعضهم على البعض. والتعذيب هو تلك الكراهية المتحولة إلى منظومة خلقت لنفسها وسائلها.

وإذا قيل هذا باستحياء أمام المجلس الوطني تهيّج قائلا : "إنكم تسبّون الجيش!" يتحتم علينا إذًا أن نسأل مرّة واحدة هؤلاء المخارشين : ما الذي يفعله الجيش هنا؟ يقع العذاب داخل الجيش وهذا أكيد : ولم تحاول لجنة المحافظة في تقرير بسيط مع ذلك أن تخفي هذا الأمر. وما بعد ذلك؟ هل الجيش هو الذي يعذّب؟

يا لها من غَباوة ! هل يُظن أن المدنيّين يجهلون الطرق الجيّدة؟ وإذا كان الأمر يتوقّف على هذا، فلا بدّ من الثقة في شرطة الجزائر. ثم إن كان لابدّ من قائد جلاّد فقد عيّنه المجلس برمّته : ليس هو الجنرال س، ولا الجنرال أو (E) ولا الجنرال م في حدّ ذاته رغم ذكره من قبل علاق. إنه السيد لاكوست صاحب السلطات الكاملة. وكل شيء يقوم بواسطته وبه سواء في بون أو وهران. وكل الرجال الذين ماتوا بالآلام والرعب في

عمارة الأبيار، وفي فيلا "س"، قد ماتوا بإرادته... ولست أنا القائل لهذا، بل النواب والحكومة. زد على ذلك أن الغنغرينة الآكلة بدأت تمتد وقد عبرت البحر : بل انتشر الخبر بأن الاستنطاق جار في بعض سجون "الوطن الأم". لا أدري هل هذا الخبر مؤسّس، ولكن يتوقّع أن يكون استمراره قد حيّر السلطات العمومية نظرا لأن وكيل الجمهورية في محاكمة بن صدوق قد سأل علنا المتهم إن سسلط عليه تعذيب. والجواب بالطبع كان معروفا مسبقا. ليس التعذيب مدنيا ولا عسكريا ولا فرنسيا بنوع خاص. إنه مفلس زُهري يفتك بعصرنا كلّه. لقد وجد جلادون في الشرق وكذلك في الغرب. منذ وقت قريب كان فركاس يعذّب المجريّين. ولا يخفي البولونيون أن شرطتهم قبل يوزنام كانت كثيرا ما تلجأ إلى السؤال. أما فيما كان يجري في الإتحاد السوفياتي في عهد صطالين فتقرير خروتشاف حوله غير قابل للطعن. بالأمس كان "يسأل" في سجون عبد الناصر رجال سياسيون تمّت ترقيتهم فيما بعد مع شجوج ظاهرة إلى مناصب عليا. هذا للإشارة فقط. واليوم الأمر واقع في قبرص وفي الجزائر. وبالجملة، لم يكن هتلار إلا رائدا.

وهذا التعذيب، وإن كان منكرا، وَبشيء من الرخاوة أحيانًا، إلا أنه كان يُطبَّق بانتظام خلف واجهة الشرعية الديمقراطية. ويمكن تعريف التعذيب على أنه مؤسسة نصف سرّية. وهل أسباب التعذيب واحدة في كل مكان؟ بالتأكيد : لا. إلا أن التعذيب يعبّر عن نفس الضائقة في كل مكان. وهذا ليس من المهمّ إذ ليس لنا الحق في الحكم على هذا القرن. فلنكنس أمام عتبتنا ولنحاول فهم ما أصابنا، نحن الفرنسيين.

أنتم تعلمون ما يقال أحيانا لتبرئة الجلادين : لا بدّ من التصميم على تعذيب رجل إذا كان إقراره يؤدي إلى نجاة مئات الأرواح.

ما أجمل هذا التناقض! لم يكن علاق ولا أودان إرهابيين. والدليل على ذلك أن علاق متهم "بالمساس بأمن الدولة وبإعادة تأسيس رابطة محلولة".

هل كان الغرض من إحراق صدره وشعر عانته لتنجية الأرواح؟ لا، بل كان الغرض انتزاع عنوان الرفيق الذي آواه. ولو تكلم لتم وضع شيوعي آخر في السجن، هذا كل ما في الأمر.

وعلاوة على هذا فإن إلقاء القبض يتم صدفة، إذ كل مسلم "قابل للسؤال" بدون شفقة. وأغلب المعذبين لا يقولون شيئا لأنه ليس لديهم ما يقولون، إلا إذا قبلوا، لاجتناب الآلام، أن يقدموا شهادة كاذبة أو يعترفوا مجانا بجريمة لم تقتص ويتفق أن يتحملوا مسؤوليتها. أما الذين يمكنهم الكلام فإننا نعلم أنهم لن يتكلّموا، كلهم أو أغلبهم. إذ لم يفه بكلمة أودان ولا علاق ولا قرّوج. وفيما يخص هذه النقطة بالذات فإن معذبي الأبيار أعلم بها منا. يلاحظ أحدهم بعد أوّل استنطاق لعلاق: "لقد ربح رغم ذلك ليلة لتسهيل مهمة فرار أصحابه" يضيف ضابط أياما بعد ذلك: "منذ عشرة سنين أو خمسة عشر عاما يموج في أدمغتهم أنه يجب عليهم إذا ألقي عليهم القبض ألا يقولوا شيئا، وليس هناك ما يمكن فعله لانتزاع هذا من رؤوسهم".

ربما كان يريد الكلام عن الشيوعيين فقط، ولكن هل يمكن الاعتقاد بأن محارب جيش التحرير الوطني من معدن آخر. وهذا العنف لا يأتي بنتائج جيّدة، إذ الألمان أنفسهم في سنة **1944** انتبهوا إلى هذا الاقتناع. إن التعذيبات يكون عنها قتل أرواح وليس تنجية أرواح.

ومع ذلك فليس الدليل باطلا كلية: وهو على كل حال يُوضح لنا وظيفة التعذيبات. و"السؤال"، تلك المؤسسة السرية أو نصف السرية مرتبطة برباط غير قابل للحل مع سرية المقاومة أو المعارضة.

لقد انتشر جيشنا في الجزائر في كل القطر، ونحن متفوّقون بالعدد والمال والسلاح. وليس للثوار شيء باستثناء ثقة جزء كبير من السكان ومساندتهم. ولقد حددنا غصبا عنا الخطوط العريضة لهذه الحرب الشعبية: عمليات في المدن وكمائن في الأرياف: لم تختر جبهة التحرير الوطني نشاطاتها، إنها تفعل ما تستطيع، لا غير. إذ تحتم عليها قلة قواتها

مقابل قواتنا أن تهاجمنا. يجب أن تضرب وتختفي خشية إبادتها. ومن هنا تأتي ضائقتنا : إننا نحارب عدوا سرّيا، هذه يد ترمي قنبلة في شارع، وهذه طلقة نار على الطريق تجرح أحد جنودنا. وعند الهرع إلى المكان، لا يوجد أحد. وسنجد فيما بعد قرب المكان مسلمين لم يروا شيئا. وكل الأشياء تتتابع، الحرب الشعبية، حرب الفقراء ضد الأغنياء تتميّز بالارتباط الوثيق بين الوحدات الثورية والسكان. وهكذا يتحوّل هذا الحشد من الفقراء في نظر الجيش النظامي والسلطات المدنية إلى العدوّ اليومي الذي لا يمكن إحصاؤه. تحار جيوش الاحتلال في أمر هذا الصمت الذي تسببت فيه بنفسها. وتستشف إرادة صمت لا يمكن إدراكها، إنه سر يدور وحاضر دائما. فالأغنياء يشعرون بالمطاردة وسط الفقراء الذين يسكتون "والقوى النظامية" تعوقها قوتها ذاتها ولا تستطيع أن تواجه حرب العصابات إلا بالتمشيط والحملات الانتقامية، ولا شيء ضد الإرهاب إلا الرعب. وهناك شيء يخفيه الكل وفي كل مكان، وعليه يتحتم الاستنطاق.

والتعذيب غضب غير مجد تولّد من الخوف. والمراد منه انتزاع سر الجميع من حلق ما وسط الضجيج وَقَيْء الدّماء. ولا جدوى من هذا العنف ولو تكلّمت الضحية أو قضت نحبها من جرّاء الضرب لأن السر الذي لا يُحْصَى لا يوجد هنا، إنه دائما في مكان آخر لا يمكن إدراكه، ويتحوّل الجلاد إلى سيزيف : إذا طبّق "السؤال" لزمه أن يعيده دائما.

وهذا الصمت مع ذلك، وهذا الخوف وهذه الأخطار التي لا ترى أبدا وهي دائما موجودة، كل هذا لا يمكن أن يقدم لنا الشرح الشافي لعناد الجلادين ولإرادتهم إذلال ضحاياهم حتى الخساسة، وفي النهاية هذه الكراهية للإنسان التي استولت عليهم دون رضاهم وصقلتهم هكذا.

إذا وقع التقاتل، فهذه هي القاعدة : لقد وقع القتال دائما من أجل مصالح جماعية أو خاصّة. ولكن الرهان في التعذيب، تلك المباراة الغريبة، يبدو جذريا، لأن الجلاد يتبارى مع الضحية من أجل عنوان الرجولة ويحوي الأمر كله كأنهما لا ينتميان إلى الجنس البشري.

ليس هَدَفَ السؤال فقط في الإكراه على الكلام والخيانة بل يتحتم على الضحية أن تبيّن نفسها بالصراخ وبالاستسلام مثل حيوان بشري. وذلك أمام جميع الأنظار وفي نظرها نفسه. لا بدّ أن تحطّمها خيانتها وأن يُتخلص منها للأبد. والذي يستسلم للسّؤال لم يرد إرغامه على الكلام فحسب بل فرض عليه دائما وضع معيّن، هو وضع ما دون البشر. ويُمَثّل هذا التطرف الجذري للرهان سمة من سمات هذا العصر. لأن الرجل لا بدّ وأن يَنَشَّأ. والواقع أن إرادة الحرية لم تكن في أي وقت مضى أكثر وعيا وأكثر قوة من اليوم، كما لم يكن الاضطهاد أعنف ولا أحسن تسلّحا.

وفي الجزائر لا يمكن التخلص من التناقضات، لأن كل مجموعة من المتنازعين تطالب بالإقصاء الجذري للأخرى. لقد جرّدنا المسلمين من كل شيء.

وقد منعنا عنهم مع ذلك كل شيئ حتى استعمال لغتهم نفسها. لقد بين مامّي جيّدا كيف ينشأ الاستعمار بإلغاء المستعمِرين. لم يكونوا يملكون أي شيء ولم يكُونوا كذلك أي إنسان. لقد قضينا على حضارتهم ورفضنا تمكينهم من حضارتنا. لقد طلبوا الإدماج والتكامل وأجبناهم بالرفض ؛ وبأي معجزة يمكن الاحتفاظ بالاستغلال الاستعماري المتزايد إذا كان المستعمَرون يتمتعون بنفس الحقوق مع المعمّرين؟ ونظرا لنقص تغذيتهم وأميتهم وبؤسهم، فإن النظام كان دائما وبدون شفقة يدفعهم نحو تخوم الصحراء وإلى أقصى حدود ما هو إنساني.

وباعتبار تزايدهم السكاني كان مستوى معيشتهم ينخفض سنة تلو الأخرى. وعندما دفعهم اليأس نحو التمرّد، تحتّم على هذا الخلق دون البشر أن يموتوا أو أن يثبتوا إنسانيتهم ضدنا : لقد تخلصوا من كل قيمنا ومن ثقافتنا، ومن تفوقاتنا المزعومة، وكان كل هذا عندهم أن يطالبوا بعنوان الرجولة وأن يرفضوا الجنسية الفرنسية.

ولم يكن هذا التمرّد يكتفي بمعارضة سلطة المعمّرين، إذ شعر هؤلاء بإعادة النظر في وجودهم في حدّ ذاته. وبالنسبة لأغلبية أوربيّي الجزائر توجد حقيقتان متكاملتان ومتلازمتان وهما أن المعمّرين رجال بحق إلهي وأن الأهالي دون الرجال. إنها ترجمة وهميّة لوضع صحيح، لأن غنى الأوّلين يتربع على بؤس الآخرين.

وهكذا يضع الاستغلال صاحبه في تبعيّة الذي يستغله. وهذه التبعية في مستوى آخر تكون هذه التبعية في قلب العنصرية، وذلك هو تناقضها العميق ومصيبتها اللاذعة لأنه بالنسبة لأوربيي الجزائر لا يكون رجلا إلا إذا كان أعلى من المسلم.

ولكن إذا أثبت المسلم بدوره أنه رجل مساو للمعمّر، فماذا يقع؟ بهذا يشعر المعمّر أنه بدأ يصاب في كيانه. إنه يشعر بالنقص في ذاته وأن قيمته انحطت، ولا يرى في ارتقاء "البونيول" (الجزائريون الأصليون) إلى عالم البشر النتائج الاقتصادية فقط، بل يمقت هذا الارتقاء لأنه يعلن انحداره الشخصي. وقد يؤدي به غيظه إلى الحلم بالإبادة العنصرية، ولكن هذا نوع من الشعر، إذ هو يعرفه ويعرف تبعيته ؛ فما الذي يصنعه بدون شبه الطبقة الشغيلة المحلية وبدون يد عاملة فائضة وبدون بطالة مزمنة تمكنّه من فرض أجوره؟ ثم إذا كان المسلمون رجالا فعلا فقد ضاع كل شيء ولم تعد الحاجة تدعو إلى إبادتهم، إذ الأكثر استعجالا. إن بقي شيء من الوقت له، هو إذلالهم والقضاء على الكرامة في قلوبهم وإحباطهم إلى مرتبة الحيوان. لابدّ من ترك الأجسام تعيش بدون الأرواح التي ستقتل. القهر والترويض والعقاب، إنها الكلمات التي تستحوذ على عقل المعمّر. ولم يبق في الجزائر الفضاء الكافي لجنسين من البشر، ولابدّ من الاختيار بينهما.

وأنا لا أزعم بالطبع أن أوربيي الجزائر هم الذين اخترعوا التعذيب ولا أنهم حفزوا السلطات المدنية والعسكرية على القيام به. بل عكس ذلك،

لأن التعذيب فرض نفسه تلقائيا وقد تحول إلى عادة قبل الانتباه إليه. إلا أن كراهية الإنسان التي تظهر في التعذيب تعبّر عن العنصرية، لأن الإنسان هو المقصود بالإبادة مع كل مزاياه الإنسانية من شجاعة وإرادة وذكاء ووفاء، تلك المزايا، التي يطالب بها المعمّر لنفسه. وإذا الأوربي يحتدّ غضبا حتى يبغض صورته نفسها فلأنه يشاهدها معكوسة له من عربي.

وهكذا من بين هذين الزوجين غير القابلين للفصل، المعمّر والمعمَّر والجلاد وضحيته، لا يمثل الثاني إلا انبعَاثًا من الأول. والجلادون ليسوا بدون شك معمَّرين وليس المعمّرون جلادين. وهؤلاء الجلادون في أغلبيتهم شبّان آتون من فرنسا وقضوا عشرين سنة من حياتهم دون أن يهتمّوا أبدًا بالقضية الجزائرية. ولكن الكراهية كانت هنالك تكوّن حقلا من القوى المغناطيسية فطعنتهم وفتّتتْهُم واستعبدتهم.

كل هذا يتيح لنا إدراكه الوعي الهادئ لعلاق. وحتى لو لم يأت إلا بهذا فلابدّ من الاحتفاظ له باعتراف عميق. ولكنه عمل أكثر من هذا بكثير لأنه عندما خوّف جلاديه انتصر لإنسانية الضحايا والمستعمَرين ضد أنواع العنف المختل لبعض العسكريين وضد عنصرية المعمَّرين. وأرفض أن تذكرنا كلمة "الضحايا" هذه نوعا ما من الإنسانية المتباكية، لأن علاق وحده، من بين هؤلاء الزعماء الصغار والمعتزين بشبابهم وبفوتهم، هو الوحيد الصلب والوحيد المتمتع بالقوّة. أمّا نحن، فإننا نستطيع أن نقول إنه دفع أغلى ثمن للتمتع بحقه البسيط في البقاء رجلا ضمن الرجال. ولكنه لا يفكر في هذا البتّة. لهذا نتأثر تأثرا بليغا عند قراءة هذه الجملة غير المصطنعة في آخر فصل من الفصول :

"كنت أشعر فجأة بافتخاري وفرحي لأنني لم استسلم. وكنت مقتنعا بأني سأصمد مرّة أخرى إن هم كرّروا العملية، وبأنني سأقاوم حتى النهاية، لأنني لن أسهل لهم المهمّة إذا لم أنتحر."

نعم، إنه صلب سينتهي بتخويف سادة الغضب.

وفي بعض كلامهم على الأقل نحسّ بأنهم يتوقعون نوعا من الانكشاف الغامض والفاضح : إذا انتصرت الضحية فسلام على السيادة وعلى حق السيد. وهكذا تتوقف أجنحة السادة الملائكة فيَتَساءل هؤلاء الناس : هل أستطيع أنا أن أصمد إذا ما عُذّبت بدوري؟ ذلك لأنه حين الانتصار يحلّ نظام قيم محلّ الآخر. ولا ينقص إلا شيء بسيط ليصيب الجلادين دوخة بدورهم. كلاّ. بل أدمغتهم فارغة وعملهم منهك ثم إنهم مع ذلك لا يؤمنون إلا قليلا بما يعملون.

ثم ما الفائدة مع ذلك من تعكير ضمائر الجلادين ؟ إذا زلّ أحدهم استبدله قادته لأنه إذا ضاع واحد حضر عشرة. وشهادة علاق، وربما تكمن هنا مزيته الكبرى، تنتهي إلى تبديد أوهامنا. لأنه لا يكفي أبدا أن نعاقب أو أن نعيد تربية بعض الأشخاص، لا لن نضفي شيئا من الإنسانية على حرب الجزائر. لقد انتصب التعذيب فيها ذاتيا. لقد اقترحته الظروف وتطلبته الكراهيات العنصرية. وبطريقة أخرى، ولقد سبق أن لاحظنا ذلك نجد التعذيب في قلب النزاع، ولربّما كان ترجمان الحقيقة الأكثر عمقا. وإذا أردنا وضع حدّ لهذه البشاعات القذرة والكئيبة وإنقاذ فرنسا من عارها والجزائريين من الجحيم، لم يبق بين أيدينا إلا وسيلة وهي دائما نفسها الوسيلة الوحيدة التي توفرت لدينا والتي لن نحصل على مثلها أبدا : فتح المفاوضات وإحلال السلم.

رابعـــا

تقديــم لـــــ :
" المعذّبون في الأرض "

فرانس فانون



منذ زمن غير بعيد كان سُكّان الأرض مليارين، هم على التوالي خمسمائة مليون رجل ومليار وخمسمائة مليون من الأهالي. وكان الأولون أصحاب الكلمة والآخرون يستعيرونها. وبين هؤلاء وأولئك ملوك صغار مبيعون وإقطاعيون وكانت برجوازية مصطنعة ومركبة من قطع متباينة تقوم بدور الوسطاء. وكانت الحقيقة في المستعمرات تظهر عارية، وكانت "الأوطان الأم" تفضلها لابسة. وكان على الأهلي أن يحبها مثل الأمهات، إن صحّ التعبير. وقامت النخبة الأوربية بصناعة نخبة من السكان المحليين. وهكذا كان يتم اختيار شبان مراهقين يَسمون على جباههم بالحديد الأحْمَر مبادئ الثقافة الغربية، وتوضع في أفواههم كمامات مصوّتة عبارة عن كلمات كبيرة لازقة تلتصق بالأسنان. وبعد إقامة قصيرة في الوطن الأم يعادون إلى أوطانهم مزوّرين. ولم يبق لهذه الأكاذيب الحيّة شيء تقوله لإخوانها. كانوا يرنّون. وكنا من باريس ولندن وآمستردام نلقي كلمات "بانْتِينُون أو فراتارنيتي!"، وفي مكان ما في إفريقيا أو آسيا تنبثق شفاه: مُصَوّتة "...تينونَ! و...نيتي!" وكان ذلك العصر الذهبي.

وقد انتهى ذلك العصر، وتفتحت الأفواه من تلقاء نفسها. وكانت الأصوات الصفراء والسوداء لا زالت تتكلم عن انسانيتنا ولكنها كانت بذلك تُعاتِبنا لانعدام إنسانيتنا. وكنا نسمع بنوع من التلذذ هذه العروض المهذبة حول الأسس. وكان هذا في البداية إعجابا فَخورا: كيف هذا؟ إنهم يتكلمون من تلقاء أنفسهم؟ وانظروا مع ذلك ما فعلنا بهم! لم نكن نشك في رفضهم لمثلنا الأعلى لأنهم كانوا يتهموننا بعدم الوفاء له. وبهذا

آمنت أوربا برسالتها : لقد "يَوْنَنَت" الآسيويين وأنشأت ذاك الجنس الجديد، ألا وهم السّود "اليونانيون اللاتينيون". وكنا نضيف إلى هذا فيما بيننا لنكون عمليين "فلنتركهم ينبحون"، وهذا وضع يريحهم، لأن الكلب الذي ينبح لا يعض.

وجاء جيل آخر وحوّل القضية. وحاول كتابه وشعراؤه بصبر كبير لا يعقل أن يشرحوا لنا أن قيمنا لا تنطبق كما ينبغي مع حقيقة حياتهم، ولا يستطيعون رفضها تماما ولا استيعابها.

والمراد من هذا جملة واحدة : إنكم تحوّلوننا إلى وحوش، فهذه إنسانيتكم تزعم أننا كونيون ومعاملاتكم العنصرية تخصّصنا. وكنا نَسْتمع إليهم مرتاحين، ذلك أن الإداريين المستعمرين لم تدفع لهم أجور لمطالعة هيجل ولهذا لم يكونوا يطالعونه إلا قليلا، ولم يكونوا إضافة إلى ذلك في حاجة إلى هذا الفيلسوف ليعلموا أن الضمائر البائسة تتخبط في تناقضاتهم. فالفعالية سالبة. وعليه فلنمدّد بؤسهم ولن يجدي شيئا. وكان الخبراء يقولون لنا لو كان في أنينهم شيء من المطالبة لكان المطالبة بالإدماج. الأمر الذي لا يمكن توفيره بالطبع، لأن عملا مثل هذا يؤدي حتما إلى إفلاس النظام القائم كما تعلمون على الاستغلال المتزايد. ولكن يكون كافيا أن نلوّح لهم بالإدماج ليهرولوا. أمّا أن يثوروا علينا فقد كنا جد مرتاحين من هذا الجانب، إذ لا يعقل أن يسعى محلي صاحب ضمير لإبادة أبناء أوربا النبلاء لتحقيق هدف واحد وهو أن يتحوّل إلى أوربي مثلهم. وقد كنا نشجع مثل هذه الكآبات ولم نستقبح منح جائزة غونكور في يوم مّا إلى أسود ؛ وكان ذلك قبل سنة **1939**.

واسمعوا، سنة **1961**: "علينا أن لا نضيع وقتنا في دعوات عقيمة أو إيماءات اشمئزازية. ولنغادر أوربا هذه التي لا تكف عن الكلام عن الإنسان مع أنها تبيده حيث تجده، في كل زوايا شوارعها وفي كل زوايا العالم والوضع أنها منذ قرون تخنق باسم "مغامرة روحية" مزعومة الأغلبية الساحقة للبشرية." هذه اللهجة جديدة، ومن يجرؤ على استعمالها؟ إنه

إفريقي، من العالم الثالث ومستعمَر قديم. ويضيف : "وقد اكتسبت أوربا سرعة جنونية فوضوية... تسوقها حتما نحو الهاوية، التي يستحسن الابتعاد عنها." فأوربا بعبارة أخرى مندثرة. وهذه حقيقة لا يحلو النطق بها، ولكننا كلنا، أعزّائي الساكنين معي في هذه القارة، مقتنعون بها في أعماق أعماقنا تمام الاقتناع.

ومع ذلك، لابدّ من استثناء : وذلك عندما يقول فرنسي لفرنسيين آخرين : "ولقد انتهينا" – وهذا أمر يقع فيما أعرف كل يوم منذ سني **1930** – فكلامه عاطفي، يفور من الغضب والمحبّة، والخطيب بهذا يلتحق بكل مواطنيه. ويزيد على ما يقول عادة : "ما لم..." والمفهوم هو اجتناب أي خطأ. وإذا لم تطبق هذه الوصايا حرفيا، فحينئذ وحينئذ فقط ستنفجر البلاد. إنه بالجملة خطر تتبعه نصيحة، وهذه الكلمات أقل صدمة ما دامت منبثقة من الذاتية القومية المشتركة. وعندما يقول فانون عن أوربا إنها تسعى لحتفها فإنه، عوض أن يصرخ صرخة إنذار، يقترح تشخيصا. وهذا الطبيب يزعم محاكمة أوربا بدون استئناف -وقد شاهدنا معجزات- ولا أن يقدم لها وسائل شفائها : إنه يلاحظ أنها تحتضر. وذلك من الخارج واعتمادا على الأعراض التي استطاع جمعها. أما أن يعالجها فلا، إن لديه هموما أخرى. سواء أقضت نحبها أم نجت، فهذا لا يعنيه. وبهذا الإدراك يظهر كتابه فضيحة. وإذا همستم مازحين ومتضايقين : "ما هذا الذي يفعله بناص!" إلا أنكم لا تقفون على طبيعة الفضيحة، لأن فانون لا "يفعل" بكم شيئا، ذلك أن كتابه جد المتأجج عند الآخرين يبقى بالنسبة لكم باردا، لأن الكلام عنكم فيه كثير، أما مخاطبتكم فهذا غير وارد أبدًا. لقد انتهت جوائز غونكور السوداء ونوبل الصفراء : لن يعود وقت الفائزين المستعمَرين. هذا أحد الأهالي ناطق "باللغة الفرنسية"، يطوّع هذه اللغة لمتطلبات جديدة، ويستعملها ويخاطب المستعمَرين وحدهم : "أيها السكان المحليون لجمع البلدان النامية، اتحدواص!" ياله من انحطاط : كنا بالنسبة للآباء وحدنا المحاورين، أما الأولاد فلا

يعتبروننا البتّة محاورين مقبولين، إذ نحن موضع للكلام. وفانون يذكر بالطبع جرائمنا المشهورة : سطيف وهانوي ومداغاسكار. ولكنه لا يضيع وقته في التنديد بها : إنه يستعملها. وإذا كان يفكّك خطط الاستعمار، والطرق المعقدة للعلاقات التي توحّد المعمَّرين و"سكّان الوطن الأم" أو تتسبب في المعارضة فيما بينهم، فإنما كان يفعل ذلك لصالح إخوانه، وهدفه أن يعلمهم كيفية تعطيل مناوراتنا.

هذا هو العالم الثالث يرفع القناع عن نفسه ويخاطبها بهذا الصوت. ولا يغيب عنا أنه غير متجانس إذ لا زال يضم شعوبا مستعبدين، وآخرين حصلوا استقلالا مزيفا، وآخرين يُكافحون لاسترجاع السيادة، وآخرين في النهاية قد انتزعوا الحرية الكاملة إلا أنهم يعيشون تحت التهديد المستمر لعدوان امبريالي. وهذه الفوارق وليدة التأريخ الاستعماري أي الاضطهاد فهنا قد اكتفى "الوطن الأم" باشتراء بعض الإقطاعيين. وهناك، وهو مستعمل سياسة «فرق تسُد» صنع من العدم بورجوازية مستعمَرين، وفي مكان آخر ضربت عصفورين بحجرة واحدة، إذ صارت المستعمرة في نفس الوقت للاستغلال وللتعمير. وهكذا عددت أوربا الانقسامات، والتعارضات وأنشأت طبقات وأحيانا عنصريات، وحاولت بكل الوسائل أن تحدث وتنمّي طبقات في المجتمعات المستعمرة. وفانون لا يُخفي شيئا : إذا أرادت المستَعمرة القديمة أن تُحاربنا فعليها أن تحارب نفسها. أو أن نوعي المحاربة شيء واحد. وإذا بدأت الحرب وجب على كل الحواجز الداخلية أن تزول، وهكذا يجب على برجوازية رجال الأعمال الضعيفة وعلى الطبقة الشغيلة الحضرية الدائمة الامتيازات وعلى مثيلتها في الأحياء القصديرية وعلى الكل أن يلتحقوا بالجماهير الريفية، ذلك الخزان الحقيقي للجيش الوطني والثوري. والفلاحون في تلك المناطق التي عطل فيها الاستعمار النموّ عمدًا، عندما يثورون يظهر بسرعة أساس الطبقة الأساسية. إذا تعرف هذه الاظطهاد الجليّ وتتألم منه أكثر من عمال المدن، وإذا أردنا أن نحول بينها وبين الموت جوعا فعلينا أن نمنع

التفكك لكل البنيات... وإذا انتصرت هذه الطبقة فستكون الثورة الوطنية اشتراكية. وإذا أوقفنا اندفاعها واستولت البورجوازية المستعمَرة على الحكم، فستبقى الدولة الجديدة رغم سيادتها الشكلية بين أيدي الامبرياليين. هذا ما يعبّر عنه بوضوح مثال الكاتانغا. وهكذا لم تتحقق وحدة العالم الثالث : إنها مشروع في مجال الإنجاز يمرّ بالوحدة في كل بلد سواء أكان ذلك قبل الاستقلال أو بعده لجميع المستعمَرين تحت قيادة الطبقة الريفية. هذا ما يشرحه فانون لإخوانه في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية : سوف نحقق جميعا ومتحدين الاشتراكية الثورية في كل مكان، وإلا فسوف يهزمنا الواحد تلو الآخر مستبدّونا القدامى. ولا يخفي فانون أي شيء، لا النقائص ولا الاختلافات ولا المخادعات. فهنا تنطلق الحركة انطلاقة سيئة، وهناك وبعد نجاحات مذهلة تظهر الحركة في تراجع، وفي مكان آخر توقفت الحركة. وإذا أريد لهذه الحركة الانطلاقة من جديد فلم يبق للفلاحين إلا أن يرموا بورجوازيتهم في البحر. ويحذّر القارئ تحذيرا شديدا ضد الاحتلالات الأكثر خطرا : الزعيم، والتعلق بالشخص والثقافة الغربية، وفي نفس المستوى عودة الثقافة الافريقية من الماضي السحيق، لأن الثقافة الحقيقية هي الثورة، معنى ذلك أنها ثقافة تصهر في النار. فانون يتكلم بصوت مرتفع ونحن الأوربيين نستطيع أن نسمعه. والدليل على ذلك أنكم آخذون هذا الكتاب بين أيديكم. ألا يخاف أن تستفيد القوى الاستعمارية من صراحته ؟

لا، لا يخاف فانون شيئا، لأن تصرفاتنا قد أكل الدهر عليها وشرب، إذ هي تستطيع أحيانا أن تؤخر التحرير ولكنها لن تستطيع إيقافه. وعلينا أن لا نتخيّل أننا قادرون على تصحيح طرقنا، إذ الاستعمار الجديد، ذلك الحلم الكسول للأوطان الأم، ضَرب من الأوهام. "فالقوى الثالثة" لا توجد فعلا أو هي عبارة عن البورجوازيات المصطنعة التي وضعها الاستعمار في الحكم. وماكياقيليتنا لا تأثير لها على هذا العالم جد المتيقظ الذي تقصّى كل أكاذيبنا. ولم يبق للمعمِّر إلا حلا وحيدا وهو اللجوء إلى القوة إن بقي منها

شيء ولم يبق للأهليّ إلا اختيار واحد : العبودية أو السيادة. ولن يضر فانون قراءتكم كتابه أو عدمها، إنه يفضح أمام إخوانه حيلكم القديمة، يقينًا منه أنه لم يبق ما تعوّضونها به. إنه يقول لهم : لقد داست أوربا قارّاتنا بأقدامها، فعلينا أن نقطّع هذه الأقدام حتى تزيلها. والوقت معنا إذ أنه لا يَقَع شيء في بنزرت أو إليزاباتفيل أو في الريف الجزائري إلا ويبلغ خبره الأرض كلها. والكتل لها مواقف متعارضة توقفها عند حدودها، فلنغتنم هذا الشلل ولندخل التأريخ وليجعل دخولنا التأريخ كونيا لأول مرّة. فلنقاتل، وإذا لم نجد سلاحا، فصبر السكين سيكون كافيا.

أيها الأوربيون، افتحوا هذا الكتاب وادخلوه. فإنكم سترون بعد خطوات في الظلام أجانب مجتمعين حول النار، فاقتربوا واستمعوا : إنهم يتحدثون عن المصير الذي يخصصونه لوكالاتكم التجارية وللمرتزقة الذين يحمونها. ربّما سيرونكم ولكنهم سيواصلون الحديث فيما بينهم دون أن يخفضوا أصواتهم. وعدم الاكتراث هذا يصيب القلب. إن الآباء، تلك المخلوقات من الظلال، مخلوقاتكم، كانوا عبارة عن أرواح ميتة أنتم تنيرونها ولا تخاطب غيركم وكنتم لا تبذلون أدنى جهد لإجابة هذه الأشباح. أمّا الأولاد فلا يعرفونكم : هناك نار تضيئهم وتثير هممهم وليست ناركم. وأنتم من مسافة معتبرة كنتم تَشعرون بأنكم مختفون وسارون ليلا ومرتجفون كل في دورة. وفي هذه الظلمات التي سينبثق منها فجر آخر، أنتم الأشباح لا غير.

وربما قلتم في هذه الحالة لم يبق لنا إلا أن نرمي هذا الكتاب عبر النافذة. لماذا نقرأه ما دام لم يكتب لنا؟ لسببين اثنين أولهما أن فانون يشرحكم لإخوانه ويفكك لهم آليات اختلالاتكم : اغتنموا هذه الفرصة لتنكشفوا لأنفسكم في حقيقتكم كأشياء، كمواضيع. وضحايانا يعرفوننا بجراحاتهم وسلاسلهم، وهذا يجعل شهادتهم غير قابلة للتفنيد. ويكفيهم أن يوقفونا على ما فعلنا بهم لنعلم ماذا فعلنا بأنفسنا. وهل هذا مفيد؟ نعم، ما دامت أوربا في خطر كبير من الموت. ولربما قلتم زيادة على هذا، نحن نعيش في

الوطن الأم ونُنبَذ التعدّيات. تلك حقيقة، إذ لستم معمّرين، ولكن لستم أحسن منهم. إنهم روّادكم، وأنتم الذين أرسلتموهم وراء البحار، وقد أغنوكم. وقد أنذرتموهم إن هم سفكوا الدماء فوق اللازم فستتبرؤون منهم بشفاهكم فقط. مثلما تفعل أي دولة بنفس الطريقة : إذ تنفق على مجموعة من المثيرين للاضطرابات ومن المستفزين ومن الجواسيس في الخارج وتتبرّأ منهم عندما يلقى عليهم القبض. إنكم لكثرة تسامحكم وإنسانيتكم يذهب بكم حب الثقافة إلى التكلف، وتتظارون بأنكم ناسون أن لكم مستعمرات وأنه يباد فيها بأسمكم. ويكشف فانون لرفاقه، وخصوصا لجماعة منهم لا يزالون مغرّبين فوق الزيادة - تضامن "سكان الوطن - الأم" مع أعوانهم في المستعمّرات. أقبلوا بشجاعة على قراءة هذا الكتاب، ولو لأنه يثير بادئ ذي بدء خجلهم، ولأن الخجل كما يقول ماركس عاطفة ثورية. وأنتم ترون أنني بدوري لا أستطيع أن أنخلع من انخداعي الذاتي. أنا كذلك أقول لكم : "كل شيء ضاع، إلا إذا..." أيها الأوربي إني أسرق كتاب عدوّ، واستعمله كوسيلة لاستشفاء أوربا. فاغتنموا الفرصة.

وهاكم السبب الثاني. إن أنتم طرحتم جانبا ثرثرة صورال الفاشيستية، لاحظتم بأن فانون هو الأول منذ أنجيلس الذي يسلط الضوء من جديد على مولّدة التأريخ. ولا تغترّوا بظنكم أن دما حادا جدّا أو مصائب في شبابه جعلته يميل ميلا خاصّا نحو العنف : إنه يترجم الوضعيّة فقط. ولكن هذا كافٍ ليؤسس مرحلة تلو الأخرى الجدلية التي يخفيها عنكم النفاق المتحرر والتي أنتجتنا كذلك مثل فانون.

كانت البورجوازية في القرن الماضي تعتبر العمال حسّادين، قد اختلتهم شهوات بذيئة إلا أنها كانت تدمج هؤلاء المتوحشين الكبار في جنسنا لأنهم لو لم يكونوا بشرا وأحرارا لن يتمكنوا من بيع قوة عملهم. والانسانية في فرنسا وفي أنغلتيرا تعتبر نفسها كونية.

ولكن الأمر ينعكس في حالة العمل الشاق : لا يُوجَد عقد، ويتحتم التخويف مع هذا، وبالتالي يظهر الاضطهاد. أما جنودنا من وراء البحار

فإنهم يرفضون كونية "الوطن-الأم" ويطبّقون على الجنس البشري "حصر العدد" إذ ما دام لا يمكن أي أحد أن يجرد أخاه ولا يستعبده ولا يقتله، فإنهم يعملون بمبدأ أن المستعمَر ليس أخا للإنسان وهكذا كلّفت قوتنا الضارية بمهمّة تحويل هذا اليقين المجرد إلى واقع، إذ أصدرت الأوامر لتخفيض سكان القطر المحتل إلى مستوى القرد العالي لتبرير موقف المعمِّر حينما يعاملهم معاملة الدوابّ. ولا يكتفي العنف الاستعماري بإيقاف الرجال المستعبَدين عند حدهم وإنما يهدف إلى نزع الطابع الانساني عنهم. ولن يكون هناك توان عن القضاء على عاداتهم وتقاليدهم واستبدال لغاتهم بلغاتنا، وتدمير ثقافتهم دون إعطائهم ثقافتنا. ولكن لابد من إرهاقهم بالتعب. وإذا استطاعوا مقاومة الجوع والمرض فالخوف هو الذي يأتي بخاتمة العمل : توجّه البنادق صوب الفلاحين ثم يأتي مدنيّون ينصبون أنفسهم في أرضه ويرغمونه بقوة السوط على إفلاحها لصالحهم. وإذا قاوم هذا الوضع أطلق العساكر الرصاص عليه، فهو رجل ميّت. وإذا استسلم انحط ولم يعد رجلا، لأن العار والخوف سيحطمان طبعه ويفجّران شخصه. ويقوم بتنفيذ هذه العملية على وجه الشرعة خبراء : لأن "المصالح النفسية" وجدت منذ زمان. وكذلك "تنظيف الأدمغة". ومع ذلك ورغم كل هذه الجهود، لم يبلغ الهدف في أي مكان، سواء أكان ذلك في الكونغو حيث كانت أيدي السود تقطع أو في أنغولا حيث كانت منذ زمن قريب جدا تُثَقَّب شفاه الساخطين لتغلق بالأقفال. ولا أزعم أنه يستحيل تحويل إنسان حيوانا، وإنما أقول إن هذا لا يتحقق إلا بعد إضعافه كثيرا، والضرب وحده غير كاف إذ يتحتم نقص التغذية. إنه الضجر مع العبودية. عندما ندجّن عضوا من جنسنا فإننا نقلل مردوديته ومهما قلت أجرة ذلك الرجل الداجن فستكون كلفته أعلى من منتوجه. لهذا السبب يضطر المعمّرون إلى إيقاف الترويض في منتصف وقته، والنتيجة تكون بعد ذلك لا رجل ولا حيوان وإنما الأهليّ. إنه يضرب وتقلل تغذيته، وهو مريض ومخوّف إلى حدّ ما فقط. ومهما كان

لونه أصفر أو أسود أو أبيض. فإن له نفس ميزات الطبع : إنه كسول ومكّار وسارق يقتات بشيء قليل ولا يعرف إلا القوة.

ما أتعس المعمّر ؛ هذا تناقضه بدون غطاء لم يبق له إلا أن يقلد الجن الذي كما قيل يقتل الذين يسلبهم. إلا أن هذا غير ممكن. ألم يتحتم عليه كذلك أن يستغلهم؟ ولاستحالة دفع التقتيل حتى الإبادة الجنسية والاستعباد حتى التخبيل. فإن المعمّر يفقد توازنه وتنعكس العملية. وهناك منطق لا ردّة له يسوق العملية إلى إنهاء الاستعمار.

ولكن ذلك لا يقع في الحين. فالأوربي يهيمن في البداية. وبهذه العملية هو خاسر ولكن لا ينتبه لخسرانه. هو لا يعلم بعد أن الأهالي ليسوا ما يظن بل هم عكس ذلك. وإذا استمعت إليه فإنه يسيء إليهم ليقضي على الشر الموجود فيهم أو لصدّه عنهم. وبعد ثلاثة أجيال تنقرض غرائزهم الخبيثة إلى الأبد. أي غرائز هذه؟ تلك التي تدفع العبيد إلى القضاء على سيّدهم؟ وكيف لا يكتشف في هذا قساوته ذاتها منقلبة ضدّه. وكيف لا يجد في وحشية هؤلاء الفلاحين المضطهدين وحشية المعمّر التي امتصّوها بكل مسامهم والتي لن يشفوا منها؟ والسبب بسيط : إن هذه الشخصية المتغطرسة. التي أخلت به قوته العظيمة والخوف على ضياعها. لا يتذكر جيدا أنه كان فيما مضى إنسانًا. إنه يظن نفسه سوطا أو بندقية. وكذا وصل إلى حدّ الاعتقاد بأن دوجنة "الأجناس السفلى" يمكن تحقيقها بتكييف ردود أفعالهم.

إنه يتجاهل الذاكرة البشرية والذكريات التي لا تطمس، وعلاوة على ذلك وبوجه الخصوص ربما يوجد ما لم يعلمه أبدًا : لا نتحوّل إلى ما نحن عليه إلا بالانتفاء الذاتي والجذري لما حوّلنا إليه. أيقولون ثلاثة أجيال؟ في الجيل الثاني فقط، عندما كان الأبناء يفتحون عيونهم على الكون شاهدوا اضطهاد آبائهم. وفي تعبير طب الأمراض النفسية صاروا "مصدومين نفسيا". ولمدى الحياة. ولكن هذه الاعتداءات الدائمة التجدد. عوض أن تسوقهم نحو الاستسلام، تدفعهم إلى تناقض لا يحتمل سوف

يدفع الأوربي نفقاته إن عاجلا وإن آجلا. وبعد ذلك فليروّضوا بدورهم، وليتعلموا العار والألم والجوع، الأمر الذي لن يحدث في أجسامهم إلا غيظا بركانيا تساوي قوته قوة الضغط المفروض عليهم. ألم تكونوا تقولون إنهم لا يعرفون إلا القوة؟ بالطبع، وما هي إلا قوة المعمّر في البداية. وعن قريب لن تكون إلا قوتهم، ومعنى ذلك أن نفس القوة ترتد علينا مثلما تنعكس نحونا صورتنا من أعمق المرآة. وعليكم ألاّ تغترّوا بهذا، ذلك لأنهم بهذا الغيظ الجنوني وبهذا الحقد وهذا الغضب وبرغبتهم الدائمة في قتلنا، وبالتقلص الدائم لعضلاتهم القوية التي تخشى أن تنحل، صاروا رجالا، بالمعمّر الذي يريدهم رجالا كادحين وضدّ المعمّر. وهذه الكراهية رغم عماها وتجرّدها تبقى كنزهم الوحيد. فالسيد يثيرها لأنه يسعى لتحويلهم إلى حيوانات، ويفشل في تحطيم الكراهية لأن مصالحه توقفه في منتصف الطريق. وهكذا لا يزال الأهالي المزوّرون بشرا، وذلك بقوة المضطهد وضعفه الذين يتحوّلان لديهم إلى رفض عنيد لمقام الحيوان. أما فيما يتعلّق بالباقي فقد فهمنا : إنهم كسالى، وهذا بالطبع سلوك تخريبي، إنهم مكّارون وسراق، طبعا. وسرقاتهم التافهة تصير إشارة لبداية مقاومة لم تنظم بعد. وهذا غير كاف، لأن هناك من يثبتون رجولتهم بارتمائهم على بنادق العدوّ بدون سلاح، هؤلاء أبطالهم، وآخرون يتحوّلون إلى رجال عندما يقتلون الأوربيين. هؤلاء يقتلون : وإعدام هؤلاء القطاع والشهداء يثير حماس الجماهير المرعبين

إنهم مرعبون، نعم، ذلك لأن الاعتداء الاستعماري في هذا الوقت الجديد يستبطن رعبا لدى المستعمَرين، ولا أريد بهذا الإشارة إلى الخوف الذي يشعرون به أمام وسائلنا الاضطهادية التي لا تنفد فحسب بل كذلك الخوف الذي يأتيهم من هيجانهم. إنهم محصورون بين سلاحنا المصوّب نحوهم وتلك الدوافع المخيفة ورغبات القتل التي تتصاعد من أعماق القلوب وهم لا يستطيعون التعرف عليها لأنها ليست في البداية عنفهم، بل هو عنفنا المنقلب الذي ينمو ويمزّقهم. وأول حركة يقوم بها هؤلاء

المضطهدون تتمثل في تعميق دفن هذه العنف غير القابل للاعتراف، والذي ترفضه أخلاقهم وأخلاقنا، وما هو في الواقع إلا آخر ملجإ لبشريتهم. إقرؤوا فانون : وستعلمون أن الجنون القاتل وقت ضعف المستعمَرين هو لا شعورهم الجماعي.

وهذا الهيجان الذي لا ينفجر لضغطه يدور حول نفسه ويدمّر المضطهدين إلى أنفسهم. وليحرروا أنفسهم من هذا الهيجان يذهب بهم الأمر إلى التقاتل فيما بينهم، فالقبائل تحارب إحداها الأخرى لعدم القدرة على محاربة العدو الحقيقي، وعليكم باعتبار السياسة الاستعمارية التي تذكي الخلافات فيما بينهم. وعندما يرفع الأخ سكينه في وجه أخيه فإنه يعتقد أنه يقضي نهائيا على الصورة البغيضة لدناءتهما المشتركة. ولكن هذه الضحايا التكفيرية لا تزيل تعطشهم إلى الدم. ولن يتوقفوا عن الزحف نحو رشاشاتنا إلا إذا تواطؤوا معنا. ومن تلقاء أنفسهم سوف يسارعون تقدّم تجريدهم من الانسانية الذي يرفضونه. وهكذا سيحتاطون فيما بينهم بحواجز غير طبيعية، فتراهم تارة يحيون خرافات مرعبة، وتارة أخرى يرتبطون بمناسك مفرطة. وهكذا يفرّ المهووس من متطلبه العميق إلى استبداله بقيود تتابعه في كل حين. يرقصون والرقص يشغلهم ويحل عقود عضلاتهم المتضررة بتقلصاتها، ثم إن الرقص يحاكي في الخفاء ودون أن يشعروا بذلك الرفض بلا الذي لا يقدرون على النطق به، وكذلك الجرائم التي لا يستطيعون ارتكابها. وفي بعض الجهات يلوذون إلى آخر ماجإ، وهو التمالك. إن ما كان قديما عملية دينية بسيطة ونوعا من اتصال المؤمن بالمقدس، حوّلوه سلاحا ضد اليأس والذل : فالزار واللؤوا ومقدسو القدسية ينزلون داخلهم ويتحكمون في عنفهم ويبعثرونه في شطحاتهم حتى الإنهاك. وهذه الشخصيات العليا تحميهم في نفس الوقت، ومعنى ذلك أن المستعمَرين يحمون أنفسهم من التغريب الاستعماري بالزيادة من الاختلال الديني. وتكون النتيجة الوحيدة في نهاية المطاف أنهم يجمعون هذين الاغترابين

الذين يقوي أحدهما الآخر. وهكذا وفي بعض الذهانات يتصور بعض المهلوسين الذين أتعبتهم الشتائم اليومية أنهم يسمعون في صبيحة يوم ما صوت ملَك يُثْنِي عليهم. ولكن التهكمات لا تنتهي مع ذلك. إنها من الآن فصاعدا تناوب التهنئة. هذا دفاع ونهاية لمناورتهم: فالشخص مفكك والمريض يسير نحو الجنون. ويضاف بالنسبة لبعض البؤساء الذين تم انتقاؤهم بشدة ذلك الامتلاك الذي تكلمت عنه أعلاه وهو الثقافة الغربية. وربّما تقولون لو كنا مكانهم لفضلنا زاراتنا على الآكروبول، لقد فهمتم إذا، ولكن ليس تمام الفهم لأنكم لستم مكانهم. ليس بعد. ولو كان الأمر كذلك لفهمتم أنهم لا يستطيعون الاختيار. إنهم يجمعون. هناك عالمان، وبالتالي امتلاكان: يرقصون الليل كله وفي الصباح الباكر يسارعون نحو الكنائس لسماع القداس، والشق يتسع مع الأيام. ويخون عدوّنا أصحابه ويتواطأ معنا، وكذلك يفعل إخوانه، وروح الأهالي مرض نفسي أدخله ويصونه المعمّر لدى المستعمَرين مع موافقتهم.

المطالبة ثم الإنكار في نفس الوقت للمنزلة الإنسانية، هذا لعمري تناقض انفجاري. ومهما انفجر إلا وعرفتموه مثلي. ونحن نعيش وقت الانفجار، وإذا تسببت كثرة الولادات في تزايد الفاقة، وإذا كان المواليد الجدد يخشون الحياة أكثر من الموت شيئا ما، فإن سيل العنف سيجرف كل الحواجز. ففي الجزائر وفي أنغولا يقتل الأوربيون في واضحة النهار. إنه وقت البومرينغ أي العنف المنقلب ضد صاحبه، وهو الوقت الثالث للعنف، يرجع العنف نحونا ويضربنا ولا نفهم، أكثر من المرات الأخرى، أنه عنفنا. ويندهش "الليبيراليون" المتحرّرون، إنهم يعترفون بأننا لم نكن متأدّبين مع الأهالي، وربما كان من القسط ومن الحذر أن نمنحهم بعض الحقوق حسب المستطاع. ولم يكونوا يطالبون بأكثر من قبولهم دفعات وبدون كفيل في هذا النادي الشديد الانغلاق، أي ضمن جنسنا. وها هو ذا الهيجان الهمجي والجنوني يقصفهم شأن المعمّرين الأشرار. واليساريون في الوطن الأم متضايقون، لأنهم يعرفون المصير الحقيقي للأهالي وهو

الاضطهاد المتواصل المسلط عليهم، وهذا اليسار لا يندد بثورتهم علما منه بأننا فعلنا كل شيء لإثارتها. ولكن اليسار يقول في نفسه : هناك حدود لكل شيء، ألا يفكر هؤلاء المحاربون في سلوك النبلاء. وسيكون هذا أحسن وسيلة لإثبات أنهم رجال. وفي بعض الأحيان يعاتبهم اليسار : "إنكم تبالغون، ولن نساندكم" إنهم لا يكترثون لذلك، فإذا نظرنا إلى قيمة مساندة اليسار لهم وجدناها ضئيلة ولا تعتبر.

عندما بدأت حربهم وقفوا على هذه الحقيقة القاسية : إننا كلنا متساوون مهما كنا. ولقد استفدنا كلنا منهم، وهذا لا يحتاج إلى دليل، ولن يستثنوا أحدا. فالواجب واحد والهدف واحد، إخراج الاستعمار بكل الوسائل، وربما كان أكثرنا تيقظاً على استعداد على الأقل لقبول هذا، ولكنهم لن يستطيعوا أن يتجاهلوا أن هذا الاستعمال للقوة إنما هو الوسيلة غير الإنسانية سماها التي اختارها من هم دون مقام الإنسانية لانتزاع ميثاق الإنسانية. فليمنح ذلك عاجلا وليُبيِّنوا لنا بمعاملات سلميّة أنهم أهل لهذا الميثاق، إن أرواحنا الخيرة عنصرية.

وسنستفيد من قراءة فانون إنه يبيّن جليا أن هذا العنف الذي لا يمكن كبته ليس عاصفة لا معقولة ولا انبعاث غرائز وحشية ولا دون ذلك أثر ضغينة. إنه الإنسان يستعيد تركيبَه. وقد علمنا الحقيقة التالية فيما أعتقد ونَسيناها : لن يمحو آثار العنف أي لطف، إذ العنف وحده قادر على محوها. والمستعمَر يعالج مرضه الاستعماري بإخراج المعمّر بالسلاح. وعندما ينفجر غضبه يستعيد شفافيته الضائعة، ويتعرف على نفسه لأنه ينبني. ونحن من بعيد نعتبر حربه انتصارًا للهمجية، إلا انها حرب تتسبّب بدورها في التحرير التدريجي للمحارب، إنها تقضي تدريجيا في داخله وخارجه على الظلمات الاستعمارية. وعندما تبدأ هذه الحرب فإنها تكون بدون شفقة. إمّا أن يبقى الإنسان خائفا وإمّا أن يصير مخيفا، ومعنى ذلك الاستلام للإنفصالات التي تمليها حياة مزيّفة أو اكتساب الوحدة الميلادية. وعندما يمسّ الفلاحون البنادق، فإن الخرافات القديمة تضمحّل

والممنوعات تتساقط الواحدة تلو الأخرى إذ سلاح المحارب هو إنسانيته. لأنه يجب في بداية الثورة القتل، وقتل أوربي هو كضرب عصفورين بحجرة أي القضاء على المضطهِد والمضطهَد، والنتيجة هي رجل ميّت ورجل حرّ. والذي يبقى حيّا يشعر لأول مرّة بأن تحت أخْمص رجليه ترابًا وطنيّا. وفي هذا الحين لا تبتعد عنه الأمة، فإننا نجدها حيث يذهب وحيث هو، ولكن أبدا بعيدة عنه، إن الأمة تمتزج بحرّيته. ولكن الجيش الاستعماري بعد هذه المفاجأة الأولى يردّ الفعل، فلم يبق إلا الإتحاد أو قبول التدمير. وهكذا تنقص الخلافات القبلية أو تميل نحو الزوال، ذلك لأنها أولا تخاطر بالثورة، ولأنها لم يكن لديها غير تحويل العنف نحو أعداء غير حقيقيين. وإذا تَمادَت هذه الخلافات القبلية مثلما هو واقع في الكونغو فلأن أعوان الاستعمار هم اللذين يذكونَها. وتبدأ الأمّة المسيرة : وهي بالنسبة لأي أخ موجودة حيث يحارب إخوة آخرون. وحبّهم الأخوي عكس الكراهية التي يكنونها لكم. إنهم إخوة لأن كل واحد منهم قد قتل أو يستطيع بين آونة وأخرى أن يقتل. ويُبيّن فانون لقرّائه حدود "العفوية" وضرورة "النظام" وأخطاره. ولكن، في كل تطور للعملية ومهما عظمته المهمة فإن الضمير الثوري يتعمق، وتتطاير التعقدات، وليأت أحد يكلمنا عن "عقدة التبعية" عند جندي جيش التحرير الوطني. عندما يتحرر الفلاح مما يحجب بصره فإنه يتعرّف على حاجاته ما كانوا يقتلونه إلا أنه كان يحاول تجاهلهم. ويكتشفهم الآن عبارة عن مطالب غير محدودة. وفي هذا العنف الشعبي لا يمكن الضرورات العسكرية والاجتماعية والسياسية ؟نظرا للاستماتة في المقاومة مدة خمس سنوات أو ثماني سنوات مثلما فعله الجزائريون- أن تتميز بميزة ما. لأن الحرب - ولو من جانب النظر إلى القيادة والمسؤوليات- تؤسس بنيات جديدة ستكون المؤسسات الأولى للسلم.

وهكذا يجد الإنسان نفسه متأسسا في التقاليد الجديدة نفسها، وهي البنيات المقبلات لحاضر مرعب، وها هو مشروع بحق سيولد وهو يولد كل يوم في الحرب، وذلك أنه مع آخر مستعمر قتل أو وضع في سفينة العودة أو اندمج، فإن جنس الأقلية يندثر تاركا المكان فارغا للأخوة الاشتراكية.

وهذا ليس كافيًا بعد، لأن هذا المحارب يسارع في قطع المراحل. أو تظنون أنه يخاطر بحياته ليجد نفسه مثل المسن في "الوطن الأم". لاحظوا صبره، ربّما يحلم أحيانا "بديان بيان فو" جديد، ولكنكم لا تعتقدون أنه يفكر فعلا في هذا. إنه فقير محارب مع فقره أغنياء مسلحين بقوة كبيرة.

وفي انتظار الانتصارات الحاسمة وغالبا بدون انتظار أي شيء فإنه يدفع أعداءه نحو الاشمئزاز. وهذا يؤدي حتمًا إلى خسارات مخيفة. ويصير الجيش الاستعماري ضاربا، فيقوم بالتقسيمات العسكرية وبالتمشيطات والتجميعيات والحملات العقابية. فيقتل النساء والأطفال. وهذا الرجل الجديد يعرف هذا، إنه يبدأ حياته بنهايتها، إنه يعتبر نفسه ميتا بالقوة، وسوف يموت مقتولا، وهو لا يقبل هذه المخاطرة فحسب بل هو متيقن من ذلك. وهذا الميت بالقوة ضاعت زوجته وضاع أبناؤه. ولأنه شاهد احتضارات كثيرة فإنه يريد أن ينتصر عوض أن ينجو، ويستفيد آخرون غيره من الانتصار. إنه منهك. ولكن التعب القلبي يتسبب في شجاعة عظيمة. نحن نجد إنسانيتنا قبل الموت واليأس، وهو يجدها وراء التعذيب والموت. لقد كنا زارعي الرياح، وعاصفتنا هو. وبما أنه وليد العنف، فإنه يغترف منه في كل لحظة إنسانيته. لقد كنا رجالا نعيش على حسابه، وهو يحوّل نفسه إلى رجل يعيش على حسابنا. إنه رجل آخر، بِمزَايا خير من الأول.

هنا يتوقّف فانون. وقد بين الطريق. وبصفته لسان حال المحاربين حثّ على الاتحاد وعلى وحدة القارة الإفريقية ضد كل الخلافات والخصوصيات. وقد بلغ غايته. وإذا كان يريد وصف الحدث التاريخي للاستعمار كلية تحتم عليه أن يتكلّم عنا، الأمر الذي لا يدخل بالتأكيد في موضوعه. ولكننا عندما طوينا الكتاب فإنه يتواصل لدينا، رغم مؤلفه لأننا نحس بقوة الشعوب الثائرة ونستجيب بالقوة. يوجد إذا وقت جديد للعنف، ولا بدّ من العودة لنا هذه المرة لأن هذا العنف صار يُغيّرُنا مادام شبه الأهلي يتغير بواسطتها. لكل واحد الحق في التعامل مع أفكاره كيفما

يشاء شريطة أن يفكر مع ذلك، لأن أي تسلية فكرية - في أوربا الحالية التي أذهلتها الضّربات الموجهة لها سواء كانت فرنسا أو بلجيكا أو انكلترا - تعتبر تواطؤا مع الاستعمار.

وهذا الكتاب لم يكن قط في حاجة إلى تقديم، ذلك لأنه لم يوجّه لنا. ولكني وضعت له تقديما لإيصال الجدلية إلى حدّها: نحن أقوام أوربا كذلك نحرّر من الاستعمار، ومعنى ذلك أنه بواسطة عملية دامية يَقْتَلِعُ منا المعمّر الموجود داخل كل واحد. ولننظر إلى أنفسنا إن كانت لنا الشجاعة اللازمة ولنعتبر ماذا حدث لنا.

علينا أولا مُجابهة هذا المنظر غير المتوقع: تعرية انسانيتنا بالتدريج. إنها عارية تماما لا جمال لها، إذ لم تكن إلا إيديولوجية كاذبة، وتبريرا متقنا للنهب. كان عطفها وتكلفها يكفلان اعتداءاتنا. آهِ من أضداد العنف إن مظهرهم جميل، ليسوا ضحايا ولا جلادين. إن لم تكونوا ضحايا حين شرعت حكومتكم التي زكيتموها والجيش الذي عَمِل، إخوانكم بدون تردد ولا ندامة في تنفيذ الإبادة الجنسية، إنكم بدون أي شك جلادون. وإذا اخترتم أن تكونوا ضحايا وتعرّضتم ليوم أو يومين سجنا، فإنكم تَختَارُون فقط التخلص بمهارة ولن تستطيعوا النجاة، لأنكم متورطون حتى النهاية. ولتفهموا هذا في النهاية: إذا بدأ العنف هذا المساء، وإذا لم يوجد أبدا على وجه الأرض الاستغلال ولا الاضطهاد، ربّما هدأ عدم العنف المعلن النزاع. ولكن، إذا كان النظام كلّه بما في ذلك أفكاركم المناهضة للعنف يُكيّفه اضطهاد ضارب في القدم، فإن استكانتكم لن تصلح إلا لتصنيفكم مع المضطهدين.

أنتم تعلمون جيّدا أننا مستغِلّون. أنتم تعرفون جيد أننا أخذنا الذهب والنفط من "القارات الجديدة"، وأننا حملناهما إلى حواضرنا القديمة، وأن النتائج كانت جيدة. فتعالت القصور والكاتدرائيات والعواصم الصناعية. وعندما كانت الأزمة تقترب منا تدخلت أسواق المستعمرات لتخفيفها أو

صرفها. وبعدما أتْخِمت أوربا بالخيرات رسمت حق الإنسانية لكل سكانها. ورجل عندنا معناه متواطئ مادمنا استفدنا كلنا من الاستغلال الاستعماري.

وهذه القارة المتخمة والشاحبة ستؤدي إلى ما سماه فانون بِحق "النرجسية". وكان كوكتو ينزعج لباريس "تلك المدينة التي تتكلم دائما عن نفسها". وماذا تفعل أوربا غير ذلك؟ وذلك الوحش فوق الأوربي، أعني أمريكا الشمالية؟ يا لها من ثرثرة : الحرية، والمساواة والأخوة، والحب، والشرف، والوطن، وماذا أدري؟ ولكن هذا لم يكن يمنعنا في نفس الوقت من إلقاء كلمات عنصرية : الأسود القذر واليهودي القذر والرانون القذر. ولقد كانت بعض النفوس الطيبة الليبرالية والهشة أي استعمارية جملة تزعم أن هذا التناقض يصدمها. وهذا لا يعدو أن يكون إلاّ خطأً أو سوء نية، إذ لا تناقض عندنا في وجود إنسانية عنصرية مادام الأوربي لم يصر إنسانا إلا بصناعة عبيد وحوش.

لأنه مادام وجود للأهالي لم ينفضح هذا التدجيل. وكنا نجد في العنصر الإنساني طموحا مجرّدا نحو الكونية وكان ذلك يغطّي مُمَارسات أكثر واقعية، إذ كان يوجد فيما وراء البحار جنس دون الرجال سيصل بفضلنا وربما بعد ألف سنة إلى حالتنا الحاضرة. وقد كنا باختصار نخلط الجنس بالنخبة. والأهليّ اليوم يبين حقيقته، وبالتالي يظهِر نادينا المغلق بدقة ضعفه، ولم يكن إلا أقلية لا أكثر ولا أقل. وأكثر من ذلك، مادام الآخرون يتحقّقون رجالا ضدنا، فإنه يبدو أننا أعداء الجِنْس البشري. والنخبة تظهر طبيعتها الحقيقية ! إنها عصابة أشرار. وقيمنا العزيزة أضاعت أجنحتها، وعندما ننظر إليها عن قرب لن نجد واحدة لم تتلطخ بالدم.

وإذا أردتم مثالا على ذلك فما عليكم إلا أن تتذكروا هذه الكلمات الكبيرة : "ما أكرم فرنسا. أنَحْن كرام ؟ وسطيف؟ وهذه السنوات الثمانية من الحرب الضروس التي قضت على حياة مليون من الجزائريين ؟ وآلة

التعذيب الكهربائية "جيجان"؟ وعليكم أن تفهموا أنه لا يمكن أن نتهم بخيانة مهمة ما، لسبب بسيط وهو أنه لم يكن لدينا أية مهمة.

إذا الكرم في حدّ ذاته هو المتهم، وهذه الكلمة المغنية لها معنى فريد : وضعية قانونية ممنوحة. أما بالنسبة للرجال الذين أمامنا، بصفتهم جددا ومتحرّرين فليس هناك أحد يملك السلطة أو الامتياز ليمنح شيئا ما لأحد. ولكل واحد منهم كل الحقوق وعلى الكل. أما جنسنا عندما ينهي بنيانه فلن يحدد نفسه كمجموع سكان الكرة الأرضية، وإنما كالوحدة اللامتناهية لتعاملاتهم المتماثلة. هنا اتوقف، لأنكم تستطيعون إنهاء العمل بدون عناء ويكفي النظر المباشر لأول مرة ولآخرها إلى فضائلنا الأرستقراطية. إنها تحتضر، وكيف يمكنها البقاء حية مقابل أرستقراطية ما دون الرجال الذين وضعتهم. منذ سنوات فقط لم يجد معلق برجوازي؟واستعماري- للدفاع عن الغرب غير هذه الكلمات : "لسنا ملائكة، ولكن لنا نحن الندم على الأقل" يا له من إقرار! لقد كان لقارتنا قديما صنارات أخرى : البانتينون وشارتر وحقوق الإنسان والصغاستيكا والآن نعرف قيمتها، ولا يحق الزعم بتنجيتنا من الغرق بواسطة الشعور بالذنب، أي ذلك الشعور المسيحي جدا. إنها النهاية كما تلاحظون لأن أوربا تغرق من كل جَانب. فما الذي وقع إذاً؟ ذلك بكل بساطة لأننا كنا صانعي التاريخ وأصبحنا اليوم مواضيعهُ. لقد انقلب تناسب القوة، وتنحية الاستعمار قائمة، وكل ما يستطيع مرتزقتنا القيام به هو محاولة تأخير اكتمال العملية.

هذا إذا استطاعت "أوطاننا الأم" القديمة أن تجمع كل قواها وتقحمها في معركة خاسرة مسبّقا. ونجد هذه الضراوة الاستعمارية القديمة التي صنعت مجدا غير مؤكد لبيجو، نجدها في نهاية المغامرة مضاعفة وغير كافية.

يرسل المجنّدُون إلى الجزائر ويبقى الوضع مُنذ سبع سنوات بدون نتيجة. وقد تغير معنى العنف. كنا نستعمله ونحن منتصرون دون أن

يشوهنا، قد كان يعفّن الآخرين وتبقى إنسانيتنا، نحن الرجال، كاملة. وكان سكان الأوطان الأم الذين وحدتهم المصالح يباركون اتحادهم في الجرائم بالأخوة والحب. أما اليوم فإن نفس العنف المعطّل في كل مكان يرتدّ علينا بواسطة جنودنا ويستبطن فينا ويسيطر علينا. ويبدأ التراجع والنكوص، إذ يستعيد المستعمَر تركيبتهُ، ونشرع نحن المتطرفين والليبراليين والمستعمرين وأبناء الوطن الأم في التفكك. ويتعرى الغيظ والخوف، ويبرزان للعيان في "الراتوناد" والضرب حتى القتل بشوارع الجزائر العاصمة. فأين هم الوحوش الآن؟ وأين هي الوحشية ؟ ولا شيء يغيب في المظهر ولو طبل "الطامطام" فمنبهات السيارات تأتي بإيقاع "الجزائر فرنسية" في الوقت الذي يحرق فيه الأوربون المسلمين أحياء. ويذكرنا فانون أن الأطباء النفسانيين المجتمعين منذ وقت قريب في مؤتمر كانوا يتأسفون للجريمة "الأهلية" : إن هؤلاء الناس يقتتلون وهذا غير طبيعي، ربما لأن دماغ الجزائري غير نام بالكفاية.

وقد ادّعى آخرون في إفريقيا الوسطى أن "الإفريقي لا يستعمل إلا قليلا فُصُوص الجبهة". ولربما يفلح هؤلاء العلماء إن هم" واصلوا تحقيقهم اليوم في أوربا وخصوصا لدى الفرنسيين. لأننا، نحن كذلك، أصِبْنا منذ سنين بكسل جبهي، إذ الوطنيون يقتلون شيئا ما مواطنيهم، وإذا وجدوهم غائبين فجروا بيوتهم وبوابيهم. وهذا كبداية لأن الحرب الأهلية متوقعة لفصل الخريف أو لفصل الربيع المقبل. وفصوصنا مع ذلك تظهر في منتهى السلامة. فلربّما يرتد العنف على نفسه ويتجمّع في أعماقنا ويبحث حينئذ عن منفذ؟ فوحدة الشعب الجزائري تؤدي إلى انقسام الشعب الفرنسي، ففي كل قطر "الوطن الأم" سابقا ترقص القبائل وتستعد للقتال. وقد فارق الرعب إفريقيا ليستقر هنا، لأنه وببساطة يوجد عندنا هائجون يريدون أن ندفع ثمنا لعار انهزامنا أمام الأهلي، ويوجد هناك الآخرون، كل الآخرين المذنبين أيضا - بعد بنزرت، وبعد

تعذيبات سبتمبر الجماعية، من ذا الذي نزل للشوارع ليقول : كفى، يكفي؟ -ولكنهم يظهرون أكثر رزانة وهم الليبيراليون المتحرّرون أقسى القاسين لليسار الرخو. هم كذلك يشعرون بارتفاع درجة الحمى، والشكاسة. ولكن يا للهلع ! إنهم يخفون غضبهم عن أنفسهم وراء أوهامٍ وبِطَقوسٍ معقّدة، وعندما أرادوا تأخير تصفية الحسابات النهائية وتأخير وقت الإحقاق، وضعوا على رأسنا ساحرًا كبيرا يهدف قداسه إلى وضعنا في الظلام مهما كان الثمن. ولكن هذا لا يغيّر شيئا، إذ العنف المعلن لدى البعض والمكبوت عند البعض الآخر يدور حول نفسه، وهكذا ينفجر يوما في ماتس، وبعده في بوردو، وقد مرّ من هنا وسيمرّ من هناك، إنه لعب ابن مقرض. ونحن بدورنا نسلك خطوة تلو الأخرى الطريق المؤدي إلى "الأهلية". ولكن أهليتنا لن تكتمل إلا إذا احتل أرضنا المستعمَرون القدامى ومتنا جوعًا.

لا، لن يحدث هذا، لا، بل سيمتلكنا الاستعمار المخلوع، وهو الذي سيمتطينا عمّا قريب، خرفا وشامخا.

هذا هو "زارنا" و"لوانا". وستقتنعون عند قراءة آخر فصل لفانون أنه من المستحسن أن نكون أهليين في أسوأ حالات البؤس عوض أن نكون معمِّرين مثل هذا. ليس جيدا أن يتحتم على موظف بالشرطة أن يقوم بالتعذيب مدة عشر ساعات يوميا لأن أعصابه في هذه الحالة ستنهار، إلا إذا منع الجلادون ولفائدتهم الخاصة من الساعات الإضافية وإذًا أن تحمي بصراحة القوانين معنويات الأمة والجيش، فإنه لا يحسن بالثاني أن يضعف بانتظام معنويات الأولى، ولا أن يَأمن بَلَد ذو تقليد جمهوري على مئات الآلاف من شبانه بين أيدي ضباط انقلابيين.

ليس من الجيد، أيها المواطنون، أنتم الذين تعرفون كل الجرائم التي ارتكبت باسمنا، ليس من الجيّد فعلا أن لا تذكروها لأحد، حتى لأنفسكم خوفا من أن تحاسبوها. كنتم في البداية تجهلون هذا وبودي أن أصدّقكم، وبعد ذلك صرتم تشكّون، والآن أنتم تعرفون ولكنكم تصمتون دائما. ثماني سنين من الصمت تؤدي إلى التدهور. وكان كل هذا عبثاص! إذ

توجد شمس التعذيب اليوم في ذروتها وتضيء البلد كله، وتحت هذا الضوء لن تجد ضحكة صحيحة ولا طلعة لا تختفي وراء المساحيق لتخفي غضبها وخوفها، ولن تجد حركة لا تنم عن اشمئزازنا وتواطئنا.

ويكفي اليوم أن يلتقي فرنسيان لتوجد بينهما جثة. وعندما أقول : واحد... فرنسا كانت قديما اسم بلد. فلنحذر أن يكون هذا سنة **1961** إسما لمرض الذّهان.

هل سنشفى ؟ نعم، لأن العنف قادر مثل رمح آشيل على تدميل الجراح التي تسبّب فيها . إننا اليوم مكبلون بالسلاسل ومستذلون ومرضى خوفا، نحن منحطون، ولحسن الحظ، هذا غير كاف تماما للأرستقراطية الاستعمارية لأنها لن تستطيع القيام بمهمتنا التأخيرية في الجزائر إلا بعد استكمال استعمارها للفرنسيين.

إننا نحاول كل يوم الابتعاد عن المشاجرة ولكن تيقنوا أننا لن نتجنبها، لأن القتلة في حاجة إليها، إنهم سيهاجموننا من كل جانب وينسلوننا ويضربوننا جماعة. وهكذا ينتهي زمان السحرة والتمائم. عليكم إذّا أن تقاتلوا أو تتعفنوا في المعتقلات. هذه آخر لحظة للجدلية : إنكم تنددون بهذه الحرب ولكنكم لا تجرؤون بَعد على إعلان تضامنكم مع المقاتلين الجزائريين. لا، لا تخافوا - اعتمدوا في هذا على المعمّرين وعلى المرتزقة. سيساعدونكم على القفز. وحينئذ ربما ستتمكنون وظهوركم على الجدران أن تطلقوا عنان هذا العنف الجديد الذي تذكيه في أنفسكم شنائع قديمة محمّاة. ولكن هذا كما يقال حكاية أخرى إنها تأريخ الإنسان. وأنا على يقين أنه حان الوقت الذي سننضم فيه إلى الذين يصنعون التأريخ.

فهرس

أصوات مناهضة للاستدمار

يليق بالجزائريات والجزائريين والفرنسيات والفرنسيين أن يقرؤوا هذه النصوص المنعشة لآخر فيلسوف فرنسي ذي المفهوم الحاد والجانب العملي الملزم، وهو جان بول سارتر، المولع بالحرية لدى الأشخاص والشعوب قبل أوان وقت "الفلاسفة الجدد"، أصحاب الكتابة الجامدة والضارة مثل صوت ورقة بنك جديدة وفي الوقت نفسه قديمة قدم "عجل الذهب".





N° ISBN : 978-9974-21-321-6
N° Dépôt légal : 694-2007